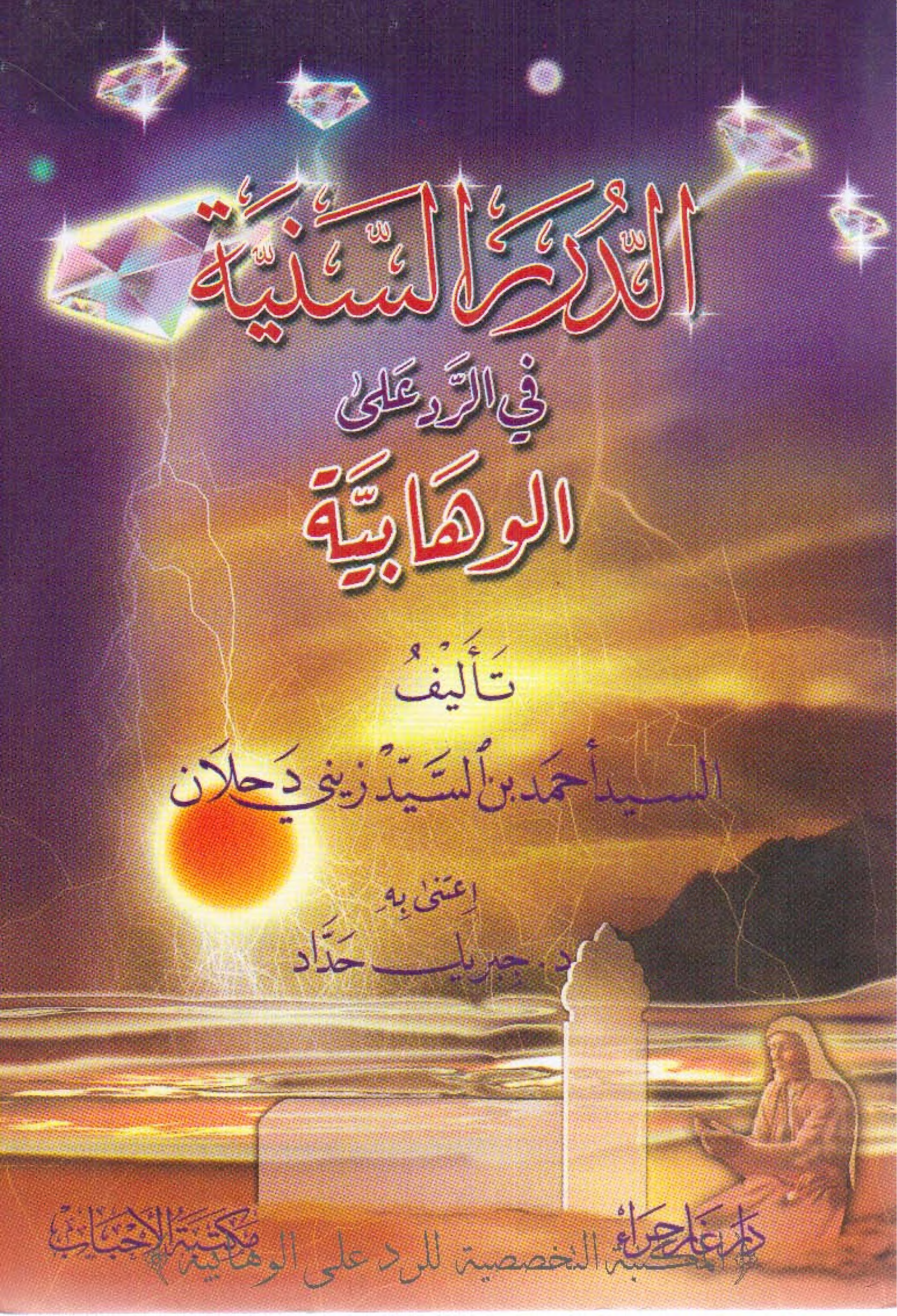


الدرر السنية
في الرد على
الوهابية
تأليف
السيد أحمد بن السيد زيني دحلان
إعتنى به
د. جبريل حداد
دار غار حراء
مكتبة الأحباب
المكتبة المتخصصة للرد على الوهابية


الدرر السنية
في الرد على الوهابية
المكتبة التخصصية للرد على الوهابية


بسم الله الرحمن الرحيم

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

في الرَّدِّ على الوهَابيَّة

تَأْلِيفُ

السيد أحمد بن السَّيِّد زيني دحلان

اِعتنى بهِ

د. جِبريل حدَّاد

مكتبة الأحباب

دار غار حراء

المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

كتابٌ قد حوى دُرَرَاً بعَيْنِ الحُسْـــنِ ملْحُوظَهْ
لِهَذا قُلْـتُ تَنْـبِيهَاً حُقُوْقِ الطَبْعِ مَحْفُوْظَهْ

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

موافقة وزارة الإعلام

تاريخ الإيداع : ٢٤/٩/٢٠٠٢

رقم الموافقة : ٧٣٠٨٨

مكتبة الأحباب

دمشق ركن الدين . جانب مجمع الشيخ أحمد كفتارو

✆ : ٢٧٤١٩٩٨ FAX : ٢٧٦٤٦٤٤ جوال : ٠٩٤/٩٤٩٠٨٥

e-mail:krmo@maktoob.com

التعريف بمؤلف الكتاب

هو العالم السيد أحمد بن السيد زيني دحلان من آل بيت النبوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، ومن الذين حرروا العلوم تحريرا وهو من العلماء العاملين الناصحين البازل همته ونفسه وماله في تربية المريدين وتعليمهم ما ينفعهم من أمور الدنيا والدين .

كان شيخاً للإسلام في المسجد الحرام ، وتخرج على يديه كثير من طلاب العلم وتاب على يديه كثير من أجلاف العرب المذنبين ، وله تآليف عديد في مختلف العلوم منها السيرة النبوية ، والفتوحات الإسلامية ، والفتح لمبين في سيرة الخلفاء الراشدين ، وله حاشية على الإظهار في التجويد ، وشرح على ألفية ابن مالك في النحو ، وله رسالة في علم الوضع ، وفي علم الجبر والمقابلة ، ورسالة في وعيد تارك الصلاة، ومتن صغير في علم البيان ، ورسالة في مباحث البسملة ، ورسالة في

صيغ الصلوات على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ورسالة تتعلق بـ(جاء زيد) ورسالة تتعلق برؤية الباري عز وجل ، وله التأليف المبارك في الرد على الوهابية ، وله غير ذلك من الرسائل والمؤلفات والشروح والحواشي ، رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي».

حديث شريف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الواحد الأحد الذي فضل سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم على سائر المخلوقات ، وشرف أمته على سائر الأمم وأعلى لهم الدرجات ، وعلى آله وأصحابه المقتفين آثاره ومن تبعهم في جميع الحالات والأوقات .

أما بعد :

فيقول العبد الفقير خادم طلبة العلم بالمسجد الحرام، كثير الذنوب والآثام ، المفتقر إلى ربه المنان «أحمد بن زيني دحلان» غفر الله له ولوالديه ومشايخه ومحبيه والمسلمين أجمعين يا رب العالمين :

قد سألني من لا تسعني مخالفته أن أجمع له ما تمسك به أهل السنة في زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتوسل به

من الدلائل والحجج القوية من الآيات والأحاديث النبوية ، وما ورد في ذلك عن السلف والعلماء والأئمة المجتهدين، ليكون ذلك مبطلاً إنكار المنكرين ، فجمعت له هذه الرسالة من كتب كثيرة ، واختصرتها غاية الاختصار اعتماداً على ما هو مبسوط في كتب العلماء الأخيار ، فأستعين الله وأقول :

بيان حكم زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم

اعلم رحمك الله أن زيارة قبر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم مشروعة مطلوبة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة .

أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ دلت الآية على حث الأمة على المجيء إليه صلى الله عليه وآله وسلم والاستغفار عنده واستغفاره لهم وهذا لا ينقطع بموته ، ودلت أيضاً على تعليق وجدانهم بالله تواباً رحيماً بمجيئهم واستغفارهم واستغفار الرسول لهم.

فأما استغفاره صلى الله عليه وآله وسلم فهو حاصل لجميع المؤمنين بنص قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وصح في صحيح مسلم أن بعض الصحابة فهم من الآية ذلك المعنى الذي دلت عليه هذه الآية ، فإذا وجد مجيئهم واستغفارهم فقد تكملت الأمور الثلاثة الموجبة لتوبة الله تعالى ورحمته ، وسيأتي في الأحاديث الآتية ما يدل على أن استغفاره صلى الله عليه وآله وسلم لا يتقيد بحال حياته، وقد علم من كمال شفقته صلى الله عليه وآله وسلم أنه لا يترك ذلك لمن جاءه مستغفراً ربه سبحانه وتعالى ، والآية الكريمة وإن وردت في قوم معينين في حال الحياة تعم بعموم العِلَّة كلَّ من وُجِد فيه ذلك الوصف في حال الحياة وبعد الممات ولذلك فهم العلماء منها العموم للجائين ، واستحبوا لمن أتى قبره صلى الله عليه وآله وسلم أن يقرأها مستغفراً الله تعالى واستحبوها للزائر ورأوها من آدابه أن يسن له فعلها ، وذكرها المصنفون في المناسك من أهل المذاهب الأربعة ودلت الآية أيضاً أنه لا فرق في الجائي بين أن يكون مجيئه بسفر أو غير سفر لوقوع «جاءوك» في حيز الشرط الدال

على العموم وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ولا شكّ عند من له أدنى مسكة من ذوق العلم أن من خرج لزيارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصدق عليه أنه خرج مهاجراً إلى الله ورسوله لما يأتي من الأحاديث الدالة على أن زيارته صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته كزيارته في حياته وزيارته في حياته داخلة في الآية الكريمة قطعاً ، فكذا بعد وفاته بنصّ الأحاديث الشريفة الآتية.

وأما السنة فما يأتي من الأحاديث .

وأما القياس فقد جاء أيضاً في السنة الصحيحة المتفق عليها الأمر بزيارة القبور ، فقبر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم منها أولى وأحرى وأحقّ وأعلى ، بل لا نسبة بينه وبين غيره ، وأيضاً فقد ثبت أنه صلى الله عليه وآله وسلم زار أهل البقيع وشهداء أحد ، فقبره الشريف أولى لما له من الحق ووجوب التعظيم ، وليست زيارته صلى الله عليه وآله وسلم إلا

لتعظيمه والتبرّك به ولينال الزائر عظيم الرحمة والبركة بصلاته وسلامه عليه صلى الله عليه وآله وسلم عند قبره الشريف بحضرة الملائكة الحافين به صلى الله عليه وآله وسلم .

وأما إجماع المسلمين فقد قال العلامة ابن حجر في [الجوهر المنظم في زيارة قبر النبي المكرم صلى الله عليه وآله وسلم] : قد نقل جماعة من الأئمة حملة الشرع الشريف الذين عليهم المدار والمعوّل الإجماع ، وإنما الخلاف بينهم في أنها واجبة أو مندوبة ، فمن خالف في مشروعية الزيارة فقد خرق الإجماع .

واحتج القائلون بوجوب الزيارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم «**من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني**»[1] .

وأجاب الجمهور القائلون بندب الزيارة بأن الجفاء من الأمور النسبية ، فقد يقال في ترك المندوب إنه جفاء إذ هو

---

(١) رواه ابن عدي بسند يحتج به ، قال : وجفاؤه صلى الله عليه وآله وسلم حرام ، فعدم زيارته المتضمن لجفائه حرام.

ترك البر والصلة ، ويطلق أيضاً على غلظ الطبع والبعد عن الشيء ، فأكثر العلماء من الخلف والسلف على ندبها دون وجوبها ، وعلى كل من القولين فالزيارة ومقدمتها من نحو السفر من أهم القربات وأنجح المساعي المساعي .

ويدل على ذلك أحاديث كثيرة صحيحة صريحة لا يشك فيها إلا من انطمس نور بصيرته ، منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «**من زار قبري وجبت له شفاعتي**»(١) وفي رواية «**حلت له شفاعتي**» ، وقد طال الإمام السبكي في كتابه المسمى [شفاء السقام في زيارة خير الأنام] في بيان طرق هذا الحديث وبيان من صححه من الأئمة ، ثم ذكر روايات في أحاديث الزيارة كله تؤيد هذا الحديث ، منها رواية «**من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي**»(٢) وفي رواية «**من**

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه برقم ١٩٤ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم : ٤١٥٩.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم ٤١٥٤..

جائني زائراً لا همه حاجة إلا زيارتي كان حقاً عليّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة»[1] وفي رواية «**من جائني زائراً كان له حق على الله عز وجل أن أكون له شفيعاً يوم القيامة**» وفي رواية «**من حج فزار قبري**»[2] وفي رواية «**فزارني بعد وفاتي عند قبري كان كمن زارني في حياتي**» وفي رواية «**من حج فزارني في مسجدي بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي**»[3] وفي رواية «**من زارني إلى المدينة كنت له شفيعاً وشهيداً ومن مات بأحد الحرمين بعثه الله من الآمنين يوم القيامة**»[4]. ثم ذكر أحاديث كثيرة كلها تدل على مشروعية الزيارة لا حاجة لنا إلى الإطالة بذكرها ، فتلك الأحاديث كلها مع ما ذكرناه صريحة في ندب بل تأكيد زيارته صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم ١٣٤٩.

(٢) رواه البيهقي في السنن برقم ١٠٠٥٤.

(٣) رواه الدارقطني برقم ١٩٢ ، والبيهقي في السنن برقم ١٠٠٥٤.

(٤) رواه الدارقطني برقم ١٩٣ .

حياً وميتاً للذكر والأنثى . وكذا زيارة بقية الأنبياء والصالحين والشهداء .

والزيارة شاملة للسفر لأنها تستدعي الانتقال من مكان الزائر إلى مكان المزور ، كلفظ المجيء الذي نصت عليه الآية الكريمة ، وإذا كانت كل زيارة قربة كان كل سفر إليها قربة، وقد صح خروجه صلى الله عليه وآله وسلم لزيارة قبور أصحابه بالبقيع وبأحد . فإذا ثبت مشروعية الانتقال لزيارة قبر غيره صلى الله عليه وآله وسلم فقبره الشريف أولى وأحرى.

والقاعدة المتفق عليها أن وسيلة القربة المتوقفة عليها قربة : أي من حيث إيصالها إليها ، فلا ينافي أنه قد ينضمّ إليها محرم من جهة أخرى كمشي في طريق مغصوب .

وأقوال العلماء صريحة في أن السفر للزيارة قربة مثلها ، ومن زعم أن الزيارة قربة في حق القريب فقط فقد افترى على الشريعة الغرّاء فلا يعوّل عليه .

وأما تخيل بعض المحرومين أن منع الزيارة أو السفر إليها من باب المحافظة على التوحيد وأن ذلك مما يؤدي إلى الشرك

فهو تخيل باطل ، لأن المؤدي إلى الشرك إنما هو اتخاذ القبور مساجد أو العكوف عليها وتصوير الصور فيها ، كما ورد في الأحاديث الصحيحة ، بخلاف الزيارة والسلام والدعاء ، وكل عاقل يعرف الفرق بينهما ، ويتحقق أن الزيارة إذا فعلت مع المحافظة على آداب الشريعة الغراء لا تؤدي إلى محذور ألبته، وأن القائل بالمنع منها سداً للذريعة مُتَقَوِّلٌ على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

وهنا أمران لابد منهما :

أحدهما وجوب تعظيم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورفع رتبته عن سائر الخلق .

والثاني إفراد الربوبية واعتقاد أن الرب تبارك وتعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه .

فمن اعتقد في مخلوق مشاركة الباري سبحانه وتعالى في شيء من ذلك فقد أشرك ، ومن قصر بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن شيء من مرتبته فقد عصى أو كفر ، ومن بالغ في تعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم بأنواع التعظيم ولم يبلغ

به ما يختص بالباري سبحانه وتعالى فقد أصاب الحق وحافظ على جانب الربوية والرسالة جميعاً ، وذلك هو القول الذي لا إفراط فيه ولا تفريط.

وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم «**لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى**»[1] فمعناه أنه لا تشد لرحال إلى مسجد لأجل تعظيمها والصلاة فيها وهذا التقدير لابد منه ، ولو لم يكن التقدير هكذا لاقتضى منع شد الرحال للحج والجهاد والهجرة من دار الكفر ولطلب العلم وتجارة الدنيا وغير ذلك ، ولا يقول بذلك أحد .

قال العلامة ابن حجر في [الجوهر المنظم] ومما يدل أيضاً لهذا التأويل للحديث المذكور التصريح به في حديث سنده حسن وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم «**لا ينبغي للمطي أن تشد رحالها إلى مسجد يبتغى الصلاة فيه غير المسجد**

(١) أخرجه مسلم في باب لا تشد الرحال ، برقم ١٣٩٧.

الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»[1].

وبالجملة فالمسألة واضحة جلية قد أفردت بالتأليف، فــلا حاجة إلى الإطالة بأكثر من هذا ، فإن من نــور الله بصــيرته يكتفي بأقل من هذا ، ومن طمس الله بصيرته فما تغني عنــه الآيات والنذر .

(١) ذكره المباركفوري في تحفة الأحوذي ٢/٢٤١.

بيان حكم التوسل

وأما التوسل فقد صح صدوره من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها . أما صدوره من النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد صح في أحاديث كثيرة : منها انه صلى الله عليه وآله وسلم كان من دعائه : «**اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك**» وهذا توسل لا شك فيه ، وصح في أحاديث كثيرة أنه كان يأمر أصحابه أن يدعوا به ، منها ما رواه ابن ماجه بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «**من خرج من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ، وأسألك بحق ممشاي هذا إليك ، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له**

سبعون ألف ملك»[1]

وذكر هذا الحديث الجلال السيوطي في الجامع الكبير ، وذكره أيضاً كثير من الأئمة في كتبهم عند ذكر الدعاء المسنون عند الخروج إلى الصلاة حتى قال بعضهم : ما من أحد من السلف إلا وكان يدعو بهذا الدعاء عند خروجه إلى الصلاة ، فانظر قوله : «**بحق السائلين عليك**»، فإن فيه التوسل بكل عبد مؤمن .

وروى الحديث المذكور أيضاً عن بلال رضي الله عنه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خرج إلى الصلاة قال : «**بسم الله آمنت بالله وتوكلي على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق مخرجي هذا فإني لم أخرج بطراً ولا أشراً ولا رياء ولا سمعة ، خرجت ابتغاء مرضاتك واتقاء سخطك ، أسألك أن تعيذني من النار وأن تدخلني الجنة**»[2] .

---

(١) اخرجه ابن ماجة في سننه برقم ٧٧٨.

(٢) رواه ابن السني بإسناد صحيح.

ورواه الحافظ أبو نعيم في عمل ليوم والليلة من حديث أبي سعيد بلفظ : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خرج إلى الصلاة قال : «**اللهم إني أسألك بحق السائلين**» إلى آخر الحديث المتقدم .

ورواه البيهقي في كتاب الدعوات من حديث أبي سعيد أيضاً ، ومحل الاستدلال قوله «**أسألك بحق السائلين عليك**» فعلم من هذا كله أن التوسل صدر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمر أصحابه أن يقولوه ولم يزل السلف من التابعين ومن بعدهم يستعملون هذا الدعاء عند خروجهم إلى الصلاة ولم ينكر عليهم أحد في الدعاء به .

ومما جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم من التوسل أنه كان يقول في بعض أدعيته «**بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي**» . قال العلامة ابن حجر [في الجوهر المنظم] رواه الطبراني بسند جيد.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم «**اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي**»[1] وهذا اللفظ قطعة من حديث رواه الطبراني في الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم وصححوه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال «**لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكانت ربت النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجلس عند رأسها وقال : رحمك الله يا أمي بعد أمي وذكر ثناءه عليها وتكفينها ببرده وأمره بحفر قبرها ، قال فلما بلغوا اللحد حفره صلى الله عليه وآله وسلم بيده وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل صلى الله عليه وآله وسلم فاضطجع ثم قال : الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذي من قبلي فإنك أرحم الراحمين**» .

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم ٨٧١.

وروى ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه مثـــل ذلـــك وكذا روى مثله ابن عبد البر عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواه أبو نعيم في الحلية عن أنس رضي الله عنه ، ذكر ذلـــك كله الحافظ جلال الدين السيوطي في الجامع الكبير .

ومن الأحاديث الصحيحة التي جاء التصريح فيها التوســـل ما رواه الترمذي والنسائي والبيهقي والطبراني بإسناد صـــحيح عن عثمان بن حنيف وهو صحابي مشهور رضي الله عنه : «**أن رجلاً ضريراً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقـــال : ادع الله أن يعافيني ، فقال : إن شئت دعوت ، وإن شئت صـــبرت ، وهو خير ، قال فادعه ، فأمره أن يتوضأ فيحســـن وضـــوءه ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيـــك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حـــاجتي لتقضى الله شفعه في ، فعاد وقد أبصر**»[1] .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك بـــرقم : ١١٨٠ ورقـــم : ١٩٢٩، والترمذي في سننه برقم : ٣٥٧٨.

وفي رواية قال ابن حنيف : «**فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأن لم يكن به ضر قط**» ففي هذا الحديث التوسل أيضاً.

وأخرج هذا الحديث أيضاً البخاري في تاريخه وابن ماجه والحاكم في المستدرك بإسناد صحيح ، وذكره الجلال السيوطي في الجامع الكبير والصغير ، وليس لمنكر التوسل أن هذا إنما كان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن قوله ذلك غير مقبول ، لأن هذا الدعاء استعمله الصحابة رضي الله عنهم والتابعين أيضاً بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم لقضاء حوائجهم .

فقد روى الطبراني والبيهقي أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في زمن خلافته في حاجة فكان لا يلتفت إليه ولا ينظر إليه في حاجة ، فشكا ذلك لعثمان بن حنيف الراوي للحديث المذكور، فقال له :« **ائت الميضأة فتوضأ، ثم ائت المسجد فصل ثم قل : اللهم إني أسألك**

وأتوجه إليك بنبينا نبي الرحمة ، **يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك لتقضى حاجتي ، وتذكر حاجتك**»[1]، فانطلق الرجل فصنع ذلك، ثم أتى بباب عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فجاء البواب فأخذ بيده فأدخله على عثمان رضي الله عنه فأجلسه معه وقال له : اذكر حاجتك ، فذكر حاجته فقضاها ، ثم قال له ما كان لك من حاجة فاذكرها ثم خرج من عنده فلقي ابن حنيف فقال له : جزاك الله خيراً ما كان ينظر لحاجتي حتى كلمته لي ، فقال ابن حنيف : والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، إلى آخر الحديث المتقدم ، فهذا التوسل ونداء بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم .

وروى البيهقي وابن أبي شيبة بإسناد صحيح أن الناس أصابهم قحط في خلافة عمر رضي الله عنه ، فجاء بلال بن

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم : ٨٣١١، والمعجم الصغير برقم : ٥٠٨.

الحارث رضي الله عنه وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال : يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم هلكوا ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وأخبره أنهم يسقون ، وليس الاستدلال بالرؤيا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فإن رؤياه وإن كانت حقاً لا تثبت بها الأحكام لإمكان اشتباه الكلام على الرائي لا شك في الرؤيا ، وإنما الاستدلال بفعل الصحابي وهو بلال بن الحارث رضي الله عنه ، فإتيانه لقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونداؤه له وطلبه منه أن يستسقي لأمته دليل على أن ذلك جائز ، وهو من باب التوسل والتشفع والاستغاثة به صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك من أعظم القربات .

وقد توسل به صلى الله عليه وآله وسلم أبوه آدم عليه السلام قبل وجود سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم حين أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ، وحديث توسل آدم عليه السلام بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم رواه البيهقي بإسناد صحيح في

كتابه المسمى [دلائل النبوة] الذي قال فيه الحافظ الذهبي : «عليك به فإنه كله هدى ونور»، فرواه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب أسألك بحق محمد إلا ما غفرت لي ، فقال الله تعالى : يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال : يا رب إنك لما خلقتني رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلاّ أحب الخلق إليك ، فقال الله تعالى : صدقت يا آدم إنه أحب الخلق إليّ وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك. ولولا محمد ما خلقتك**» رواه الحاكم وصححه الطبراني وزاد فيه «**وهو آخر الأنبياء من ذريتك**» وإلى هذا التوسل أشار الإمام مالك رضي الله عنه للخليفة المنصور ، وذلك أنه لما حج المنصور وزار قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأل الإمام مالكاً رضي الله عنه وهو بالمسجد النبوي فقال لمالك : يا أبا عبد الله استقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم وأدعو؟ فقال له الإمام مالك : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى؟ بل استقبل واستشفع به فيشفعه الله فيك ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ ذكره القاضي عياض في [الشفاء] وساقه بإسناد صحيح ، وذكره الإمام السبكي في [شفاء السقام] والسيد السمهودي في [خلاصة الوفاء] والعلامة القسطلاني في [المواهب اللدنية] والعلامة ابن حجر في [الجوهر المنظم] وذكر كثير من أرباب المناسك في آداب الزيارة . وقال العلامة ابن حجر في [الجوهر المنظم] رواية ذلك عن مالك جاءت بالسند الصحيح الذي لا مطعن فيه . وقال العلامة الزرقاني في [الشفاء] بإسناد صحيح رجاله ثقات ليس في إسنادها وضاع ولا كذاب ، ومراده بذلك الرد على من لم يصدق رواية ذلك عن الإمام مالك ونسب له كراهية استقبال القبر ، فنسبه الكراهة إلى الإمام مالك مردودة .

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ ﴾ من جملة تلك الكلمات توسل آدم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم حين قال : «**يارب أسألك بحرمة محمد إلا ما غفرت لي**» .

واستسقى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من زمان خلافته بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما اشتد القحط عام الرمادة فسقوا ، وذلك مذكور في صحيح البخاري[1] من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه وذلك من التوسل .

وفي [المواهب اللدنية] للعلامة القسطلاني : أن عمر رضي الله عنه لما استسقى بالعباس رضي الله عنه قال : «**يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد فاقتدوا به في عمه العباس**

---

(١) أخرجه البخاري باب سؤال الناس الاستسقاء برقم ٩٦٤.

واتخذوه وسيلة إلى الله تعالى» ففيه التصريح بالتوسل ، وبهذا يبطل قول من منع التوسل مطلقاً ، سواء كان التوسل بالأحياء أو بالأموات ، وقول من منع ذلك بغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ونص اللفظ الواقع من عمر رضي الله عنه حين استسقى بالعباس رضي لله عنه : «**اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وسلم فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك صلى الله عليه وسلم فاسقنا**» والحديث مذكور في صحيح البخاري من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه.

وصدر الحديث عن أنس رضي الله عنه «**أن عمر بن الخطاب رضي لله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وآله وسلم فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال فيسقون**) انتهى .

وفعل عمر رضي الله عنه حجة لقوله صلى الله عليه وآله

وسلم «**إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه**»[1] رواه الإمام أحمد والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما ورواه الإمام أحمد أيضاً وأبو داود والحاكم في المستدرك عن أبي ذر رضي الله عنه ، ورواه أبو يعلى والحاكم في المستدرك أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه الطبراني في الكبير عن بلال ومعاوية رضي الله عنهما ، وروى الطبراني في الكبير وابن عدي في الكامل عن الفضل بن العباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «**عمر معي وأنا مع عمر ، والحقّ بعدي مع عمر حيث كان**»[2] وهذا مثل ما صحّ في حق علي رضي الله عنه حيث قال صلى الله عليه وآله

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم ٦٨٨٩، والترمذي برقم : ٣٦٨٢، والحاكم في المستدرك برقم ٤٥٠١، والبيهقي في السنن برقم ١٢٥٠٣، وأبي داود برقم ٢٩٦٢، وابن ماجة برقم ١٠٨، وأحمد في مسنده ٥١٤٥، والطبراني في الأوسط ٦٦٩٢. .

(٢) رواه الطبراني في الكبير برقم ٧١٨.

وسلم في حقه «**وأدر الحق معه حيث دار**» وهو حديث صحيح رواه كثير من أصحاب السنن ، فكل من عمر وعليّ رضي الله عنهما يكون الحق معهما حي كانا : وهذان الحديثان من جملة الأدلة التي استدل بها أهل السنة على صحة خلافة الخلفاء الأربعة ، لأن علياً رضي الله عنه كان مع الخلفاء الثلاثة ، قبله لم ينازعهم في الخلافة . فلما جاءت الخلافة له ونازعه غيره ممن لا يستحق التقدم عليه قاتله . ومن الأدلة على أن توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما حجة على التوسل ، قوله صلى الله عليه وآله وسلم «**لو كان بعدي نبي لكان عمر**»[(١)] ، وروى الطبراني ، في الكبير عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «**اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر ، فإنهما حبل الله**

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي والحاكم في المستدرك عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه ، ورواه الطبراني في الكبير عن عصمة بن مالك رضي الله عنه.

الممدود ، من تمسك بهما فقد تمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها»[1].

وإنما استسقى عمر رضي الله عنه بالعباس رضي الله عنه ، ولم يستسق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليبين للناس جواز الاستسقاء بغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن ذلك لا حرج فيه ، وأما لاستسقاء بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فكان معلوماً عندهم فلربما أن بعض الناس يتوهم أنه لا يجوز الاستسقاء بغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فبين لهم عمر باستسقائه بالعباس الجواز ، ولو استسقى بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لربما يفهم منه بعض الناس أنه لا يجوز الاستسقاء بغيره صلى الله عليه وآله وسلم .

وليس لقائل أن يقول : إنما استسقى بالعباس لأن العباس حي والنبي صلى الله عليه وآله وسلم قد مات ، وأن الاستسقاء بغير الحي لا يجوز . لأنا نقول : أن هذا التوهم

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة برقم ٣١٩٤٢.

باطل ومردود بأدلة كثيرة ومنها توسل الصحابة رضي الله عنهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته كما تقدّم في القصة التي رواها عثمان بن حنيف في الحاجة التي كانت لرجل عند عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وكما في حديث بلال ابن الحارث رضي الله عنه وكما في توسل آدم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل وجوده ، وحديث توسل آدم رواه عمر رضي الله عنه كما تقدم، فكيف يتوهم أنه لا يعتقد صحته بعد وفاته ، وقد روى التوسل به قبل وجوده ، مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم حيّ في قبره ، فتلخص من هذا أنه يصح التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم قبل وجوده وفي حياته وبعد وفاته ، وأنه يصح أيضاً التوسل بغيره من الأخيار كما فعل عمر حين استسقى بالعباس رضي الله عنهما ، وذلك من أنواع التوسل كما تقدم .

وإنما خص عمر العباس رضي الله عنهما من بين سائر الصحابة رضي الله عنهم لإظهار شرف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولبيان أنه يجوز التوسل بالمفضول

مع وجود الفاضل فإن علياً رضي الله عنه كان موجوداً وهو أفضل من العباس رضي الله عنه.

قال بعض العارفين : وفي توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما دون النبي صلى الله عليه وآله وسلم نكتة أخرى أيضاً زيادة على ما تقدم وهي شفقة عمر رضي الله عنه على ضعفاء المؤمنين ، فإنه لو استسقى بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لربما استأخرت الإجابة ، لأنها معلقة بإرادة الله تعالى ومشيئته، فلو تأخرت الإجابة ، ربما تقع وسوسة واضطراب لمن كان ضعيف الإيمان بسبب تأخر الإجابة ، بخلاف ما إذا كان التوسل بغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنها لو تأخرت الإجابة لا تحصل تلك الوسوسة ولا ذلك الاضطراب .

جواز التوسل بالأولياء والصالحين

والحاصل أن مذهب أهل السنة والإجماع صحة التوسل وجوازه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في حياته وبعد وفاته، وكذا بغير من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وكذا بالأولياء والصالحين ، كما دلت عليه الأحاديث السابقة ، لأنا معاشر أهل السنة لا نعتقد تأثيراً ولا خلقاً ولا إيجاداً ولا إعداماً ولا نفعاً ولا ضراً إلا لله وحده لا شريك له ، ولا نعتقد تأثيراً ولا نفعاً ولا ضراً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا لغيره من الأحياء والأموات ، فلا فرق في التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وكذا بالأولياء والصالحين لا فرق بين كونهم أحياء وأمواتاً ، لأنهم لا يخلقون شيئاً وليس لهم تأثير في شيء وإنما يتبرّك به لكونهم أحباء الله تعالى . وأما الخلق والإيجاد والإعدام والنفع والضر

فإنه لله وحده لا شريك له ؛ وأما الذين يفرّقون بين الأحياء والأموات فإنهم بذلك الفرق يتوهم منهم أنهم يعتقدون التأثير للأحياء دون الأموات ، ونحن نقول : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ و ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

فهؤلاء المجوّزون التوسل بالأحياء دون الأموات ، هم المعتقدون تأثير غير الله وهم الذين دخل الشرك في توحيدهم لكونهم اعتقدوا تأثير الأحياء دون الأموات فكيف يدّعون أنهم محافظون على التوحيد وينسبون غيرهم إلى الإشراك ؟ ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ فالتوسل والتشفع والاستغاثة كلها بمعنى واحد وليس لها في قلوب المؤمنين معنى إلا التبرّك بذكر أحباء الله تعالى لما ثبت أن الله يرحم العباد بسببهم ، سواء كانوا أحياء أو أمواتاً، فالمؤثر والموجد حقيقة هو الله تعالى ، وذكر هؤلاء الأخيار سبب عادي في ذلك التأثير ، وذلك مثل الكسب العادي فإنه لا تأثير له .

وحياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قبورهم ثابتة عند أهل السنة بأدلة كثيرة : منها حديث : «**مررت على موسى ليلة أسري بي يصلي في قبره**»[1] ومثله «**مررت على إبراهيم فأمرني على تبليغ أمتي السلام ، وأن أخبرهم أن الجنة طيبة التربة وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر**». ومثل حديث اجتماعهم لما صلى بهم في البيت المقدس ليلة أسرى به ثم تلقوه في السموات ، وحديث تردّد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين موسى ومقام مكالمته ربه لما فرض عليه خمسين صلاة فأمره موسى بالمراجعة ، وحديث «**إن الأنبياء يحجون ويلبون**» وكل هذه الأحاديث صحيحة لا مطعن فيها لطاعن ، فلا حاجة إلى الإطالة بذكرها.

وأيضاً فقد ثبت بنص القرآن حياة الشهداء ، والأنبياء أفضل من الشهداء ، فالحياة لهم ثابتة بالأولى .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم : ٢٣٧٥.

ثم إن الحياة الثابتة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وللشهداء ليست مثل الحياة الدنيوية بل هي حياة تشبه حال الملائكة ولا يعلم صفتها وحقيقتها إلا الله تعالى ، فيجب علينا الإيمان بثبوتها من غير بحث عن صفتها وكيفيتها ، وإذا كان الأمر كذلك فلا ينافي أن كلا منهم قد مات وانتقل من الحياة الدنيوية ؛ بمعنى أنه زالت عنه الحياة التي كانت في الدار الدنيا وثبتت لهم حياة أخرى، فلا إشكال في قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ والكلام على ذلك مبسوط في المطولات ، فلا حاجة لنا إلى الإطالة بذكره .

فإن قال قائل : إن شبهة هؤلاء المانعين للتوسل أنهم رأوا بعض العامة يأتون بألفاظ توهم أنهم يعتقدون التأثير لغير الله تعالى ، ويطلبون من الصالحين أحياء وأمواتاً أشياء جرت العادة بأنها لا تطلب إلا من الله تعالى ، ويقولون للوليّ افعل لي كذا وكذا وأنهم ربما يعتقدون الولاية في أشخاص لم يتصفوا بها بل اتصفوا بالتخليط وعدم الاستقامة وينسبون لهم كرامات

وخوارق عادات وأحوال ليسوا بأهل لها و لم يوجد فيهم شيء منها . فأراد هؤلاء المانعون للتوسل أن يمنعوا العامة من تلك التوسعات دفعاً للإيهام وسدّاً للذريعة ، وإن كانوا يعلمون أن العامة لا يعتقدون تأثيراً ولا نفعاً ولا ضراً لغير الله تعالى ، ولا يقصدون بالتوسل إلا التبرّك ، ولو أسندوا للأولياء شيئاً لا يعتقدون فيهم تأثيراً . فنقول لهم: إذا كان الأمر كذلك وقصدتم سد الذريعة فما الحامل لكم على تكفير الأمة ، عالمهم وجاهلهم ، خاصهم وعامهم ؟ وما الحامل لكم على منع التوسل مطلقاً ؟ بل كان ينبغي لكم أن تمنعوا العامة من الألفاظ الموهمة لتأثير غير الله تعالى ونأمرهم بسلوك الأدب في التوسل ، مع أن تلك الألفاظ الموهمة يمكن حملها على المجاز من غير احتياج إلى التكفير للمسلمين ، وذلك المجاز مجاز عقلي شائع معروف عند أهل العلم ومستعمل على ألسنة جميع المسلمين ووارد في الكتاب والسنة ، وعليه يحمل قول القائل : هذا الطعام أشبعني وهذا الماء أرواني وهذا الدواء شفاني وهذا الطبيب نفعني فكل ذلك عند أهل السنة محمول على المجاز

العقلي ، فإن الطعام لا يشبع حقيقة والمشبع حقيقة هـو الله ، والطعام سبب عادي لا تأثير له وهكذا بقية الأمثلة .

فالمسلم الموحد متى صدر منه إسناد لغير من هو له يجب حمله على المجاز العقلي ، والإسلام والتوحيد قرينة على ذلك المجاز كما نص على ذلك علماء المعاني في كتبهم وأجمعوا عليه.

وأما منع التوسل مطلقاً فلا وجه له مع في الأحاديث الصحيحة وصدوره من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفهم ، فهؤلاء المنكرون للتوسل المانعون منه ، منهم من يجعله محرّماً ومنهم من يجعله كفراً وإشراكاً ، وكل ذلك باطل لأنه يؤدي إلى اجتماع معظم الأمة على ضلالة ؛ ومن تتبع كلام الصحابة وعلماء الأم سلفها وخلفها يجد التوسل صادراً منهم بل ومن كل مؤمن في أوقات كثيرة واجتماع أكثر الأمة على محرم أو كفر لا يجوز لقوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح «**لا تجتمع أمتي على ضلالة**»[1] قال بعضهم

---

(١) سنن ابن ماجة كتاب الفتن ٣٩٤٠.

إن هذا حديث متواتر وقال تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾.

فاللائق بهؤلاء المنكرين إذا أرادوا سدّ الذريعة ومنع الناس من الألفاظ الموهمة لتأثير غير الله تعالى أن يقولوا : ينبغي أن يكون التوسل بالأدب وبالألفاظ التي ليس فيها إيهام ، كأن يقول المتوسل : اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك صلى الله عليه وآله وسلم وبالأنبياء قبله وبعباده الصالحين أن تفعل بي كذا وكذا، لا أنهم يمنعون من التوسل ، ولا أن يتجاسروا على تكفير المسلمين الموحدين الذين لا يعتقدون التأثير إلا لله وحده لا شريك له .

ومن الشبه التي تمسك بها هؤلاء المنكرون للتوسل ، قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ فإن الله نهى المؤمنين في هذه الآية أن يخاطبوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمثل ما يخاطب بعضهم بعضاً كأن

ينادوه باسمه ؛ وقياساً على ذلك يقال لا ينبغي أن يطلب من غير الله تعالى كالأنبياء والصالحين الأشياء التي جرت العادة بأنها لا تطلب إلا من الله تعالى ، لئلا تحصل المساواة بين الله تعالى وخلقه بحسب الظاهر ، وإن كان الطلي من الله على أنه الموجد للشيء والمؤثر فيه ومن غيره على أنه سبب عادي لكنه ربما يوهم التأثير ، فالمنع من ذلك الطلب لدفع هذا الإيهام .

والجواب : أن هذا لا يقتضي المنع من التوسل مطلقاً ولا يقتضي منع الطلب من موحد فإنه يحمل على المجاز العقلي إذا صدر من موحد فلا وجه لونه شركاً ولا لكونه محرماً ، فلو قالوا إن ذلك خلاف الأدب وأجازوا التوسل وشرطوا فيه أن يكون بالأدب واحتراز على الألفاظ الموهمة لكان له وجه ، وأما المنع مطلقاً فلا وجه له .

قال العلامة ابن حجر في [الجوهر المنظم] ولا فرق في التوسل بين أن يكون بلفظ التوسل أو التشفع أو الاستغاثة أو التوجه ، لأن التوجه من الجاه وهو علوّ المنزلة ، وقد يتوسل بذي الجاه إلى من هو أعلى منه جاهاً ، والاستغاثة : معناها

طلب الغوث ، والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره وإن كان أعلى منه ؛ فالتوجه والاستغاثة به صلى الله عليه وآله وسلم وبغيره ليس له معنى في قلوب المسلمين إلا طلب الغوث حقيقة من الله تعالى ، ومجازاً بالتسبب العادي من غيره ، ولا يقصد أحد من المسلمين غير ذلك المعنى. فمن لم ينشرح له صدره فليبك على نفسه، نسأل الله العافية .

فالمستغاث به حقيقة هو الله تعالى ، وأما النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو واسطة بينه وبين المستغيث ، فهو سبحانه وتعالى مستغاث به حقيقة ، والغوث منه بالخلق والإيجاد ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم مستغاث به مجازاً والغوث منه بالكسب والتسبب العادي باعتبار توجهه وتشفعه عند الله لعلو منزلته وقدره ، فهو على حد قوله تعالى ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ أي ما رميت خلقاً وإيجاداً ، وكذا قوله تعالى ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «**ما أنا حملتكم ولكن الله**

حملكم» وكثيراً ما تجيء السنة لبيان الحقيقة ، ويجيء القرآن بإضافة الفعل لمكتسبه ويسند إليه مجازاً كقوله تعالى ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله**»[1] فالآية بيان للسبب العادي والحديث لبيان سبب فعل الفاعل الحقيقي وهو فضل الله تعالى . وبالجملة فإطلاق لفظ الاستغاثة لمن يحصل منه غوث باعتبار الكسب أمر معلوم لا شك فيه لغة ولا شرعاً ، فإذا قلت أغثني يا الله تريد الإسناد الحقيقي باعتبار الخلق والإيجاد ، وإذا قلت أغثني يا رسول الله تريد الإسناد المجازي باعتبار التسبب والكسب والتوسط بالشفاعة .

لو تتبعت كلام الأئمة وسلف الأمة وخلفها لوجدت شيئاً كثيراً من ذلك ، بل في الأحاديث الصحيحة كثير من ذلك ، ومنه ما في صحيح البخاري في مبحث الحشر ووقوف الناس للحساب يوم القيامة ، بينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم : ٢٨١٦، ورواه أحمد في مسنده برقم : ١٠١٢٧.

بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فتأمل تعبيره صلى الله عليه وآله وسلم «**واستغاثوا بآدم**» فإن الاستغاثة به مجازية عنه صلى الله عليه وآله وسلم لمن أراد عوناً أن يقول «**يا عباد الله أعينوني**» وفي رواية «**أغيثوني**».

وجاء في الحديث قصة قارون لما خسف به أنه استغاث بموسى عليه السلام فلم يغثه بل صار يقول يا أرض خذيه ، فعاتب الله موسى حيث لم يغثه وقال له : استغاث بك فلم تغثه ولو استغاث بي لأغثته فإسناد الإغاثة إلى الله تعالى إسناد حقيقي ، وإسنادها إلى موسى مجازي .

وقد يكون معنى التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم طلب الدعاء منه إذ هو صلى الله عليه وآله وسلم حيّ في قبره يعلم سؤال من يسأله .

وقد تقدم حديث بلال بن الحارث رضي الله عنه المذكور فيه : أنه جاء إلى قبره صلى الله عليه وآله وسلم وقال : يا رسول الله استسق لأمتك : أي ادع الله لهم ، فعلم منه أنه صلى الله عليه وآله وسلم يطلب منه الدعاء بحصول الحاجات

كما كان يطلب منه في حياته لعلمه بسؤال من يسأله مع قدرته على التسبب في حصول ما سئل فيه بسؤاله ودعائه وشفاعته إلى ربه عز وجل ن وأنه صلى الله عليه وآله وسلم يتوسل به في كل خير قبل بروزه لهذا العالم وبعده ، في حياته وبعد وفاته ، وكذا في عرصات القيامة فيشفع إلى ربه وكل هذا مما تواترت به الأخبار وقام به الإجماع قبل ظهور المانعين منه ، فهو صلى الله عليه وآله وسلم له الجاه الوسيع والقدر المنيع عند سيده ومولاه المنعم عليه بما حباه وأولاه .

وأما تخيل المانعين المحرومين من بركاته أن منع التوسل والزيارة من المحافظة على التوحيد ، وأن التوسل والزيارة مما يؤدي إلى الشرك فهو تخيل فاسد باطل ؛ فالتوسل والزيارة إذا فعل كل منهما مع المحافظة على آداب الشريعة الغراء لا يؤدي على محذور ألبتة .

والقائل بمنع ذلك سداً للذريعة متقوّل على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

واجب تعظيم النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وكأن هؤلاء المانعين للتوسل والزيارة يعتقدون أنه لا يجوز تعظيم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فحيثما صدر من أحد تعظيم له صلى الله عليه وآله وسلم حكموا على فاعله بالكفر والإشراك ، وليس الأمر كما يقولون ، فإن الله تعالى عظم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن الكريم بأعلى أنواع التعظيم ، فيجب علينا أن نعظم من عظمه الله تعالى وأمر بتعظيمه ، نعم يجب علينا أن لا نصفه بشيء من صفات الربوبية ، ورحم الله الأبوصيري حيث قال :

دع ما ادّعته النصارى في نبيهم

واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

فليس في تعظيمه بغير صفات الربوبية شيء من الكفر والإشراك ، بل ذلك من أعظم الطاعات والقربات ، وهكذا كل من عظمهم الله تعالى كالأنبياء والمرسلين صلوات الله

وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، كالملائكة وكالصديقين والشهداء والصالحين . قال تعالى ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ ومن تعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم : الفرح بليلة ولادته صلى الله عليه وآله وسلم ، وإطعام الطعام وغير ذلك مما يعتاد الناس فعله من أنواع البرّ ، فإن ذلك كله من تعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد أفردت مسألة المولد وما يتعلق بها بالتأليف ، واعتنى بذلك كثير من العلماء ، فألفوا في ذلك مصنفات مشحونة بالأدلة والبراهين ، فلا حاجة لنا إلى الإطالة بذلك .

ومما أمر الله بتعظيمه : الكعبة المعظمة ، والحجر الأسود ، ومقام إبراهيم عليه السلام فإنها أحجار وأمرنا الله بتعظيمها: بالطواف بالبيت ، ومس الركن اليماني وتقبيل الحجر الأسود، وبالصلاة خلف المقام ، وبالوقوف للدعاء عند المستجار ، وباب الكعبة ، والملتزم ، والميزاب، كما جرى على ذلك

السلف والخلف وكلهم في ذلك لا يعبدون إلا الله ولا يعتقدون تأثيراً لغيره ولا نفعاً ولا ضراً ، لأن ذلك لا يكون إلا لله وحده لا يكون لأحد سواه .

والحاصل كما تقدم أن هنا أمرين : أحدهما وجوب تعظيم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورفع رتبته عن سائر المخلوقات. والثاني إفراد الربوبية واعتقاد أن الرب تبارك وتعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه ، فمن اعتقد في مخلوق مشاركة الباري سبحانه وتعالى في شيء من ذلك فقد أشرك كالمشركين الذين كانوا يعتقدون الألوهية للأصنام واستحقاقها للعبادة ؛ ومن قصر بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم في شيء عن مرتبته فقد عصى أو كفر؛ وأمّا من بالغ في تعظيمه بأنواع التعظيم ولم يصفه بشيء من صفات الربوبية فقد أصاب الحقّ وحافظ على جانب الربوبية والرسالة جميعاً ، وذلك هو القول الذي لا إفراط فيه ولا تفريط .

وإذ وجد في كلام المؤمنين إسناد لشيء غير الله تعالى يجب حمله على المجاز العقلي ، ولا سبيل إلى تكفير أحد من المؤمنين ،

وإذ المجاز العقلي مستعمل في الكتاب والسنة ؛ فمن ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ فإسناد الزيادة إلى الآيات مجاز عقلي ، وهي سبب عادي للزيادة ، والذي يزيد في الإيمان حقيقة هو الله تعالى وحده لا شريك له وقوله تعالى ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ فإسناد الجعل إلى اليوم مجاز عقلي لأن اليوم محل لجعله شيباً ، فالجعل المذكور واقع في اليوم ، والجاعل حقيقة هو الله تعالى وحده ، وقوله تعالى ﴿ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ﴾ فإسناد الإضلال إلى الأصنام مجاز عقلي ، لأنها سبب في حصول الإضلال والهادي والمضلّ حقيقة هو الله تعالى وحده لا شريك له ، وقوله تعالى حكاية عن فرعون (يا هامان ابن لي صرحاً) فإسناده البناء إلى هامان مجاز عقلي لأنه سبب آمر ، فهو يأمر بذلك ولا يبني بنفسه، والذي يبني إنما هو الفعلة .

وأما الأحاديث النبوية ففيها من المجاز العقلي شيء كثير يعرف ذلك من وقف عليه من ذلك الحديث المتقدم «بينما هم

كذلك استغاثوا بآدم» فإغاثة آدم عليه السلام مجازية والمغيث حقيقة هو الله تعالى . وأما كلام العرب ففيه من المجاز العقلي ما لا يحصى كقولهم : أنبت الربيع البقل ، فجعلوا الربيع وهو المطر منبتاً ، والمنبت حقيقة هو الله تعالى ، فإسناد الإنبات إلى الربيع مجاز عقلي ، فإذا قال العامي من المسلمين نفعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو أغاثني أو نحو ذلك فإنما يريد الإسناد المجازي ، والقرينة على ذلك أنه مسلم موحد لا يعتقد التأثير إلا لله، فجعلهم ذلك وأمثاله من الشرك جهل محض وتلبيس على عوام الموحدين ، وقد اتفق العلماء على أنه إذا صدر مثل هذا الإسناد من موحد فإنه يحمل على المجاز ، والتوحيد يكفي قرينة لذلك ، لأن الاعتقاد الصحيح هو اعتقاد أهل السنة والجماعة واعتقادهم أن الخال للعبد وأفعالهم هو الله تعالى لا تأثير لأحد سواه ؛ لا لحيّ ولا لميت ، فهذا الاعتقاد هو التوحيد المحض بخلاف من اعتقد غير هذا فإنه يقع في الإشراك .

وأما الفرق بين الحي والميت كما يفهم من كلام هـؤلاء المانعين للتوسل فإن كلامهم يفيد أنهم يعتقدون أن الحي يقدر على بعض الأشياء دون الميت ، فكأنهم يعتقدون أن العبد يخلق أفعال نفسه فهو مذهب باطل ، والدليل على أن هـذا هـو اعتقادهم أنهم إذا نودي الحي وطلب منه ما يقدر عليه فـلا ضرر في ذلك ، وأما الميت فإنه لا يقدر على شيء أصلاً .

وأما أهل السنة فإنه يقولون : الحي لا يقدر على شيء كما أن الميت كذلك لا يقدر ، والقادر حقيقة هو الله تعالى ، والعبد ليس له إلا الكسب الظاهري باعتبار الحيّ ، والكسب الباطني باعتبار التبرك بذكر اسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من الأخيار وتشفعهم في ذلك ، والخالق للعباد وأفعالهم هـو الله وحده لا شريك له .

وقد تقدم كثير من الدلائل الدالة على صحة التوسـل ن ولا بأس بإلحاق أدلة تدل على ذلك زيادة على ما تقدم .

أدلة جواز التوسل بالنبي

ذكر العلامة السيد السمهودي في [خلاصة الوفاء] أن من الأدلة الدالة على صحة التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته ما رواه الدارمي في صحيحه عن أبي الجوزاء قال : «**قحط أهل المدينة قحط شديداً ، فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها فقالت : انظروا إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاجعلوا منه كوّة إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ، ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم ، فتسمي عام الفتق**»(١).

قال العلامة المراغي «وفتح الكوة عند الجدب سنة أهل المدينة يفتحون كوة في أسفل قبو الحجرة المطهرة وإن كان السقف ليس حائلاً بين القبر الشريف والسماء».

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه برقم ٩٢.

قال السيد السمهودي بعد كلام المراغي : وسنتهم اليوم فتح الباب المواجه للوجه الشريف ويجتمعون هناك وليس القصد إلا التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والاستشفاع به إلى ربه لرفعة قدره عند الله وقال أيضاً في [خلاصة الوفاء] صلى الله عليه وآله وسلم وبجاهه وبركته من سنن المرسلين وسيرة السلف الصالحين اهـ .

وذكر كثير من علماء المذاهب الأربعة في كتب المناسك عند ذكرهم زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه يسن للزائر أن يستقبل القبر الشريف ويتوسل به إلى الله تعالى في غفران ذنوبه وقضاء حاجاته ويستشفع به صلى الله عليه وآله وسلم ، قالوا : من أحسن ما يقول ما جاء عن العتبي ، وهو مرويّ أيضاً عن سفيان بن عيينة وكلّ منهما من مشايخ الإمام الشافعي ، قال العتبي : كنت جالساً عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول ، وفي رواية : يا خير الرسل إن

الله أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ، وفي رواية : وإني جئتك مستغفراً ربك عز وجل من ذنوبي ، ثم بكى وأنشأ يقول :

يا خير من دفن بالقاع أعظمه
فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه
فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال العتبي : ثم استغفر الأعرابي وانصرف ، فغلبتي عيناي فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النوم فقال : يا عتبي ألحق الأعرابي وبشره أن الله غفر له ، فخرجت خلفه فلم أجده ، وليس محل الاستدلال الرؤيا فإنها لا تثبت بها الأحكام لاحتمال حصول الاشتباه على الرائي كما تقدم ذلك ، وإنما محل الاستدلال كون العلماء استحسنوا الإتيان بما تقدم ذكره،

وذكروا في مناسكهم استحباب الإتيان به للزائر ، وليس في قولهم : وفي رواية كذا وفي رواية كذا منافاة لاحتمال أن الراوي حكى ذلك بالمعنى ؛ فمرة عبر بقوله يا خير الرسل ومرة عبر يقوله يا رسول الله وعلى ذلك يحمل أمثال هذا .

وقال العلامة ابن حجر في (الجوهر المنظم): وروى بعض الحفاظ عن أبي سعيد السمعاني أنه روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه أنهم بعد دفنه صلى الله عليه وآله وسلم بثلاثة أيام جاءهم أعرابي فرمى بنفسه على القبر الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام وحثا ترابه على رأسه وقال : يا رسول الله قلت فسمعنا قولك ، ووعيت عن الله ما وعينا عنك ، وكان فيما أنزل الله عليك قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ وقد ظلمت نفسي وجئتك مستغفراً إلى ربي ، فنودي من القبر الشريف : إنه قد غفر لك .

وجاء مثل ذلك عن علي رضي الله عنه من طريق أخرى ، فهي رواية السمعاني ، ويؤيد ذلك أيضاً ما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله «**حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، ما رأيت من خير حمدت الله تعالى ، وما رأيت من شرّ استغفرت لكم**»[1] ويؤيد ذلك أيضاً ما ذكره العلماء في آداب الزيارة من أنه يستحب أن يجدد الزائر التوبة في ذلك الموقف الشريف ، ويسأل الله تعالى أن يجعلها توبة نصوحاً ، ويستشفع به صلى الله عليه وآله وسلم إلى ربه عز وجل في قبولها ، ويكثر الاستغفار والتضرّع بعد تلاوة قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ ويقول نحن وفدك يا رسول الله وزوّارك جئناك لقضاء حقك والتبرّك بزيارتك والاستشفاع بك مما أثقل ظهورنا وأظلم قلوبنا ، فليس لنا يا رسول الله شفيع

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس برقم : ٢٧٠١.

غيرك نؤمله ، ولا رجاء بابك نصله ، فاستغفر لنا وشفع لنا عند ربك ، واسأله أن يمن علينا بسائر طلباتنا ويحشرنا في زمرة عباده الصالحين والعلماء العاملين .

وفي (الجوهر المنظم) أيضاً : أنت أعربياً وقف على القبر الشريف وقال : اللهم إن هذا حبيبك وأنا عبدك والشيطان عدوّك فإن غفرت لي سرّ حبيبك وفز عبدك وغضب عدوّك ، وإن لم تغفر لي غضب حبيبك ؛ ورضي عدوّك وهلك عبدك، وأنت يا ربّ أكرم من أن تغضب حبيبك وترضي عدوّك وتهلك عبدك . اللهمّ عبدك . اللهمّ إن العرب إذا مات فيهم سيد أعتقوا على قبره ، وإن هذا سيد العالمين فأعتقني على قبر يا أرحم الراحمين ، فقال له بعض الحاضرين: يا أخا العرب إن الله قد غفر لك بسن هذا السؤال .

وذكر علماء المناسك أيضاً أن استقبال قبره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم وقت الزيارة والدعاء أفضل من استقبال القبلة .

قال العلامة المحقق الكمال بن همام : إن استقبال القبر الشريف أفضل من استقبال القبلة ، وأما ما نقل عن الإمام أبي

حنيفة رضي الله عنه أن استقبال القبلة أفضل فهذا النقل غير صحيح ن فقد روى الإمام أبو حنيفة نفسه في مسنده عن أبي عمر رضي الله عنهما أنه قال : من السنة استقبال القبر المكرّم وجعل الظهر للقبلة .

وسبق ابن الهمام في النص على ذلك العلامةِ ابن جماعة ، فإنه نقل استحباب استقبال القبر عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ن وردّ على الكرماني في أنه تستقبل القبلة فقال إنه ليس بشيء.

ثم قال في (الجوهر المنظم) : ويستدل لاستقبال القبر أيضاً بأنا متفقون على أنه صلى الله عليه وآله وسلم حيّ في قبره يعلم بزائره ، وهو صلى الله عليه وآله وسلم لما كان في الدنيا لم يسع زائره إلا استقباله واستدبار القبلة فكذا يكون الأمر حين زيارته في قبره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، وإذا اتفقنا في المدرس من العلماء بالمسجد الحرام المستقبل للقبلة أن الطلبة يستقبلونه ويستدبرون الكعبة ، فما بالك به صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فهذا أولى بذلك قطعاً، وقد تقدم قول

الإمام مالك للخليفة المنصور : «ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله ؟ بل استقبله واستشفع به».

قال العلامة الزرقاني في شرح المواهب : كتب المالكية طافحة باستحباب الدعاء عند القبر مستقبلاً له مستدبراً للقبلة. ثم نقل عن مذهب الإمام أبي حنيفة والشافعي والجمهور مثل ذلك ، وأما مذهب الإمام أحمد ففيه اختلاف بين علماء مذهبه . والراجح عند المحققين منهم استحباب استقبال القبر الشريف كبقية المذاهب ، وكذا القول في التوسل فإن المرجح عن المحققين منهم استحبابه لصحة الأحاديث الدالة على ذلك فيكون المرجح عند الحنابلة موافقاً لما عليه أهل المذاهب الثلاثة، وقد أطال الإمام السبكي في [شفاء السقام] في نقل نصوص أهل المذاهب الأربعة في ذلك. وذكر الشيخ طاهر سنبل في رسالة له في ذلك أن ممن ذكر ذلك من علماء الحنابلة الإمام أبا عبيد الله السامري في المستوعب ، ورفعت فتوى لمفتي الحنابلة بمكة الشيخ محمد عبد الله بن حميد في هذه المسألة، فأجاب بأن الراجح عند الحنابلة استقبال القبر الشريف عند الدعاء ن

واستحباب التوسل . قال وذلك مذكور في كثير من كتب المذهب المعتمدة : منها شرح مناسك المقنع للإمام شمس الدين بن مفلح صاحب الفروع ، ومنها شرح الإقناع لمحرر المذهب الشيخ منصور البهوتي ، ومنها شرح غاية المنتهى ، ومنها منسك الشيخ سليمان بن علي جد الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة ، وكثير من المؤلفين في المذهب ذكروا ذلك . قال : وبعض هؤلاء ذكروا أيضاً قصة العتبة المشهورة وإنشاد الأعرابي (يا خير من دفن بالقاع أعظمه ... إلى آخرها، وأما الحديث الذي فيه «**اللهم إني أسألك وأتوجه إليك**» إلى آخره ، فهو حديث أخرجه الترمذي وصححه ، وأخرجه النسائي ةالبيهقي أيضاً وصححه ، ثم قال المفتي المذكور إذا تحقق ذلك علمنا أن المعتمد عند الحنابلة هو ما ذكره السائل أعني استحباب استقبال القبر الدعاء واستحباب التوسل ، والمنكر لذلك جاهل بمذهب الإمام أحمد ا هـ

وأما ما ذكره الألوسي في تفسيره من أن بعضهم نقل عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أنه منع التوسل فهو نقل غير

صحيح ، إذ لم ينقله عن الإمام أحد من أهل مذهبه وهم أدرى به ، بل كتبهم طافحة باستحباب التوسل ، ونقل المخالف غير معتبر ، فإياك أن تغترّ به .

وفي المواهب اللدنية للإمام القسطلاني : وقف أعرابي على قبره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم وقال : اللهم إنك أمرت بعتق العبيد وهذا حبيبك وأنا عبدك فأعتقني من النار على قبر حبيبك ، فهتف به هاتف : يا هذا تسأل العتق لك وحدك ، هلا سألت العتق لجميع المؤمنين؟ اذهب فقد أعتقتك، ثم أنشد القسطلاني أحد البيتين المشهورين وأنشد شارحه الزرقاني البيت الآخر ، وهما :

إن الملوك إذا شابت عبيدهم

في رقهم أعتقوهم عتق أحرار

وأنت يا سيدي أولى بذا كرماً

قد شبت في الرقِ فأعتقني من النار

ثم قال في المواهب عن الحسن البصري قال : وقف حاتم الأصمّ على قبره صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا ربّ إنا

زرنا قبر نبيك صلى الله عليه وآله وسلم فلا تردنا خـائبين ، فنودي يا هذا ما أذنا لك في زيارة قبر حبيبنا إلا وقد قبلناك فارجع أنت ومن معك من الزوّار مغفوراً لكم .

وقال ابن أبي فديك : سمعت بعض من أدركت من العلماء والصلحاء يقول : بلغنا أن من وقف عند قبر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فتلا هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ وقال صلى لله عليك يا فلان ولم تسقط له حاجة .

قال الشيخ زين الدين المراغي وغيره : الأولى أن يقول صلى الله عليك يا رسول الله بدل قوله يا محمد للنهي عن ندائه باسمه حياً وميتاً ن وابن أبي فديك من أتباع التابعين ، وكان من الأئمة الثقات المشهورين ، هو من المروي عنه في الصحيحين وغيرهما من كتب السنن : قال الزرقاني في شرح [المواهب] : اسمه محمد بن إسماعيل بن مسلم الديلمي، مات

سنة مائتين ، وهذا الذي نقله من المواهب عن ابن أبي فـديك رواه عنه أيضاً البيهقي .

وفي شرح المواهب للزرقاني أن الداعي إذا قال : اللهم إني أستشفع إليك بنبيك : يا نبيّ الرحمة اشـفع لي عنـد ربـك استجيب له .

فقد اتضح لك من هذه النصوص المروية عن النبي صـلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها أن التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم وزيارته وطلب الشفاعة منه ثابتة عنهم قطعاً بلا شك ولا مرية ، وأنها من أعظم القربـات وأن التوسل به واقع قبل خلقه وبعد خلقه في حياته وبد وفاتـه ، وسيكون التوسل به أيضاً بعد البعث في عرصات القيامة .

قال في المواهب : ورحم الله ابن جابر حيث قال :

به قـد أجـاب الله آدم إذ دعـا

ونجى في بطـن السـفينة نـوح

وما ضرّت النار الخليـل لنـوره

ومن أجله نـال الفـداء ذبـيح

ثم قال وفي كتاب [مضباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام] للشيخ أبي عبد الله بن النعمان ما يشفي الغليل من ذلك. ثم ذكر في المواهب كثيراً من البركات التي حصلت له ببركة توسله بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وروى البيهقي عن أنس رضي الله عنه «**أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستسقي به ، وأنشد أبياتاً أوَّلها :**

أتيناك والعذراء يدمى لباهُا
وقد شغلت أم الصبيّ عن الطفل

إلى أن قال :

وليس لنا إلا إليك فرارنا
وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل

فلم ينكر عليه صلى الله عليه وآله وسلم هذا البيت ، بل قال أنس لما أنشد الأعرابي الأبيات قام صلى الله عليه وآله وسلم يجرّ رداءه حتى رقى المنبر فخطب ودعا لهم ،

فلم يزل يدعو حتى مطرت السماء»[1]

وفي صحيح البخاري «أنه لما جاء الأعرابي وشكا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم القحط ، فدعا الله فأنجابت السماء بالمطر ، قال رسول الله : لو كان أبو طالب حياً لقرّت عيناه : ومن ينشدنا قوله ؟ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : يا رسول الله كأنك أردت قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فتهلهل وجه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولم ينكر إنشاد البيت ولا قوله يستسقى الغمام بوجهه ، ولو كان ذلك حراماً أو شركاً لأنكره ولم يطلب إنشاده»[2] .

وكان سبب إنشاء أبي طالب هذا البيت من جملة قصيدة مدح بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن قريشاً في الجاهلية

---

(١) ذكر في التمهيد لابن عبد البر ٢٢/٦٤.

(٢) ذكر في فتح الباري ٢/٤٩٥.

أصابهم قحط فاستسقى لهم أبو طالب وتوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان صغيراً ، فاغدودق عليهم السحاب بالمطر ، فأنشأ أبو طالب تلك القصيدة .

وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال ك أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : يا عيسى آمن بمحمد ومر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به ، ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن .

قال في الجوهر المنظم فإذا كان له صلى الله عليه وآله وسلم هذا الفضل والخصوصية أفلا يتوسل به ؟

وذكر القسطلاني في شرحه على البخاري عن كعب الأحبار : أن بني إسرائيل كانوا إذا قحطوا استسقوا بآل بيت نبيهم ، فعلم بذلك أن التوسل مشروع حتى في الأمم السابقة.

وقال السيد السمهودي في خلاصة الوفاء : إن العادة جرت أن من توسل عند شخص بمن له قدر عنده يكرمه لأجله ويقضي حاجاته ، وقد يتوجه بمن له جاه إلى من هو

أعلى منه ، وإذا جاز التوسل بالأعمـــال الصـــالحة كمـــا في صحيح البخاري في حديث الثلاثة الذين أووا إلى غار فـــأطبق عليهم ذلك الغار فتوسل كل منهم إلى الله تعالى بأرجى عمل له فانفرجت الصخرة التي سدت الغار عليهم ، فالتوسل بـــه صلى الله عليه وآله وسلم أحق وأولى لما فيـــه مـــن النبـــوّة والفضائل سواء كان ذلك في حياته أو بعد وفاته ، فالمؤمن إذا توسل به إنما يريد بنبوّته التي جمعت الكمالات .

وهؤلاء المانعون للتوسل يقولون يجوز التوســـل بالأعمـــال الصالحة مع كونها أعراضاً ، فالذوات الفاضلة أولى ، فإن عمـــر رضي الله عنه توسل بالعباس رضي الله عنه ، وأيضاً لـــو ســـلمنا ذلك نقول لهم : إذا جاز التوسل بالأعمال الصالحة فما المانع من جوازها بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم باعتبار ما قام بـــه مـــن النبوّة والرسالة والكمالات التي فاقت كـــل كمـــال وعظمـــت على كل عمل صالح في الحال والمآل مع ما ثبت من الأحاديـــث الدالة على ذلك ، ومثله سائر الأنبياء والمرســـلين صـــلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ن وكذا الأولياء وعباد الله الصالحين

لما فيه من الطهارة القدسية ومحبة ربّ البرية وحيازة أعلى مراتب الطاعة واليقين من رب العالمين ، وذلك سببه كونهم من عباد الله المقربين ، فيقضي الله سبحانه وتعالى بالتوسل بهم حوائج المؤمنين ، وينبغي أن يكون ذلك التوسل مع الأدب الكامل واجتناب الألفاظ التي توهم التأثير لغير الله تعالى .

ومن أدلة جواز التوسل قصة سواد بن قارب رضي الله عنه التي رواها الطبراني في الكبير ، وفيها أن سواد بن قارب أنشد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قصيدته التي فيها التوسل ولم ينكر عليه ، ومنها قوله :

وأشهد أن الله لا ربّ غيره
وأنك مأمون على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة
إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل
وإن كان فيما فيه شيب الذوائب
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة
بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

فلم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله «أدنى المرسلين وسيلة» ولا قوله «وكن لي شفيعا».

وكذا من أدلة التوسل مرثية صفية رضي الله عنها عمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنها رثته بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم بأبيات فيها قولها :

ألا يا رسول الله أنت رجاؤنا

وكنت بنا براً ولم تك جافيا

ففيها النداء بعد وفاته مع قولها «أنت رجاؤنا» وسمع تلك المرثية الصحابة رضي الله عنهم فلم ينكر عليها أحد قولها . «يا رسول الله أنت رجاؤنا»

قال العلامة ابن حجر في كتابه المسمى بـ [الخيرات الحسان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان] في الفصل الخامس والعشرين : إن الإمام الشافعي أيام هو ببغداد كان يتوسل بالإمام أبي حنيفة رضي الله عنه يجيء إلى ضريحه يزوره فيسلم عليه ثم يتوسل إلى الله تعالى به في قضاء حاجاته .

وقد ثبت أيضاً أن الإمام أحمد توسل بالإمام الشافعي

رضي الله عنهما حتى تعجب ابنه عبد الله بن الإمام أحمد ، فقال له الإمام أحمد إن الشافعي كالشمس للناس و كالعافية للبدن .

ولما بلغ الإمام الشافعي أن أهل المغرب يتوسلون إلى الله تعالى بالإمام مالك لم ينكر عليهم .

وقال الإمام أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : من كانت له إلى الله حاجة وأراد قضاءها فليتوسل إلى الله بالإمام الغزالي.

وذكر العلامة ابن حجر في كتابه المسمى : بـ[الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة] أن الإمام الشافعي رضي الله عنه توسل بأهل البيت النبوي حيث قال :

آل النبي ذريعتي	**وهم إليه وسيلتي**
أرجو بهم أعطى غداً	**بيدي اليمين صحيفتي**

وذكر العلامة السيد طاهر بن محمد بن هاشم باعلوي في كتابه المسمى [مجمع الأحباب في ترجمة الإمام أبي عيسى الترمذي صاحب السنن] أنه رأى في المنام ربّ العزّة فسأله عما يحفظ عليه الإيمان حتى يتوفاه عليه ، قال : فقال لي : قل

بعد صلاة ركعتي الفجر قبل صلاة فرض الصبح : إلهي بحرمة الحسن وأخيه وجده وبنيه وأمه وأبيه نجني من الغم الذي أنا فيه ، يا حيّ يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام أسألك أن تحيي قلبي بنور معرفتك يا الله يا الله يا الله يا أرحم الراحمين) فكان الإمام الترمذي يقول ذلك دائماً بعد صلاة الصبح سنة ويأمر أصحابه به ويحثهم على فعله وعلى المواظبة عليه وهو إمام حجة يقتدى به .

بل هذا الأمر أعني التوسل لم ينكره أحد قط من السلف والخلف حتى جاء هؤلاء المنكرون .

وفي الأذكار للإمام النووي «أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أمر أن يقول العبد بعد ركعتي الفجر (ثلاثاً) اللهم ربّ جبريل ومكائيل وإسرافيل ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم أجرني من النار» قال العلامة ابن علان في شرح الأذكار : خص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم في قبول الدعاء ، وإلا فهو سبحانه وتعالى رب جميع المخلوقات ، فأفهم ذلك أنه من التوسل المشروع.

وفي شرح حزب البحر للإمام زروق قال بعد ذكر كثير من الأخيار. اللهم إنا نتوسل إليك بهم فإنهم أحبوك ، وما أحبوك حتى أحببتهم ، فبحبك إياهم وصلوا إلى حبك ونحن لم نصل إلى حبهم فيك ، فتمم لنا ذلك مع العافية الكاملة الشاملة حتى نلقاك يا أرحم الراحمين .

ولبعض العارفين دعاء مشتمل على قوله «اللهم رب الكعبة وبانيها وفاطمة وأبيها وبعلها وبنيها نوّر بصري وبصيرتي وسري وسريرتي» قال بعض العارفين وقد جرب هذا الدعاء لتنوير البصر ؛ وأن من ذكر عند الاكتحال نور الله بصره ، وذلك من الأسباب العادية ن وهي لا تأثير لها ، والمؤثر هو الله تعالى وحده لا شريك له ، فكما أن الله تعالى جعل الطعام والشراب سببين للشبع والري ، لا تأثير لهما والمؤثر هو الله تعالى وحده ، وجعل الطاعة سبباً للسعادة ونيل الدرجات جعل أيضاً التوسل بالأخيار الذين عظمهم الله تعالى وأمر بتعظيمهم سبباً لقضاء الحاجات ، فليس في ذلك كفر ولا إشراك .

ومن تتبع أذكار السلف والخلف وأدعيتهم وأورادهم وجد فيها شيئاً كثيراً في التوسل ولم ينكر عليهم أحد في ذلك حتى جاء هؤلاء المنكرون ، ولو تتبعنا ما وقع من أكابر الأمة في التوسل لامتلأت بذلك الصحف وفيما ذكر كفاية ومقنع لمن كان بمرأى من التوفيق ومسمع ، وإنما أطلت الكلام في ذلك ليتضح الأمر لمن كان متشككاً في غاية الإيضاح لأن كثيراً من المنكرين للتوسل يلقون إلى كثير من الناس شبهات يستميلونهم بها إلى معتقدهم الباطل .

فعسى أن يقف على هذا النصوص من أراد الله حفظه من قبول شبهاتهم فلا يلتفت إليها فيقيم عليها الحجة في إبطاله ، فعليك باتباع الجمهور والسواد الأعظم وإلا كنت مشاققاً لله ورسوله ومتبعاً غير سبيل المؤمنين ، وقد قال تعالى ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «**عليكم**

بالسواد الأعظم فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» وقال صلى الله عليه وآله وسلم **«من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»**(١).

وقد ذكر العلامة ابن الجوزي في كتابه المسمى [تلبيس إبليس] أحاديث كثيرة في التحذير من مفارقة السواد الأعظم:

منها حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه خطب في الجابية فقال **«من أراد بحبوحة الجنة فليلتزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد»**(٢).

وحديث عرفجة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول **«يد الله على الجماعة والشيطان مع من يخالف الجماعة»**(٣).

---

(١) أخرجه الحاكم برقم : ٤٠١.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى برقم : ٩٢٢٥.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم : ٤٥٧٧.

وحديث أسامة بن شريك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول «**يد الله على الجماعة فإذا شذ الشاذ منهم اختطفته الشياطين كما يختطف الذئب الشاذة من الغنم**»[1] .

وحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال «**إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة الشاذة القاصية والنائية ، فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة العامة والمسجد**»[2]

وحديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال «**اثنان خير من واحد وثلاثة خير من اثنين وأربعة خير من ثلاثة ، فعليكم بالجماعة فإن الله تعالى لن**

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم : ٣٩١ .

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم ٣٤٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ٢/٢٣ .

يجمع أمتي إلا على هدى»[1]

فهؤلاء المنكرون للتوسل والزيارة فارقوا الجماعة والسواد الأعظم وعمدوا إلى آيات كثيرة من آيات القرآن التي نزلت في المشركين فحملوها على المؤمنين الذين تقع منهم الزيارة والتوسل وتوصلوا بذلك إلى تكفير أكثر الأمة من العلماء والصالحاء والعباد والزهاد وعوامّ الخلق ، وقالوا مثل أولئك المشركين الذي قالوا ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ وقد علمت أن المشركين اعتقدوا ألوهية غير الله تعالى واستحقاقه العبادة ، وأما المؤمنين فلم يعتقد أحد منهم ألوهية غير الله واستحقاقه العبادة ، فكيف يجعلونهم مثل أولئك المشركين ﴿ سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴾.

---

(١) مسند الإمام أحمد برقم : ٢١٣٣١.

الرد على معتقدات المنكرين للزيارة والتوسل

ومما يعتقده المنكرون للزيارة والتوسل منع طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ويقولون أن الله تعالى قد قال في كتابه العزيز ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ فالطالب للشفاعة لا يعلم حصول الإذن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في أنه يشفع له فكيف يطلب منه الشفاعة ولا يعلم أنه ممن ارتضى فكيف يطلب الشفاعة ؟ واحتجاجهم هذا مردود بالأحاديث الصحيحة الصريحة في حصول الإذن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالشفاعة للمؤمنين .

وقد صحت الأحاديث بأنه صلى الله عليه وآله وسلم يشفع لمن قال بعد الأذان : اللهم رب هذه الدعوة التامة إلى آخر الدعاء المشهور ، ولمن صلى على النبي صلى الله عليه وآله

وسلم يوم الجمعة ، ولمن زار قبره صلى الله عليه وآله وسلم .

وجائت أحاديث كثيرة في أعمال من عملها حلت له الشفاعة ولو ذكرناها لطال الكلام .

وجاءت أحاديث صريحة في شفاعته لعصاة أمته كقوله صلى الله عليه وآله وسلم «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»(١) .

وذكر كثيراً من المفسرين في قوله تعالى ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾ أن كل من مات مؤمناً كان ممن ارتضى فيدخل في شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم ، فثبت بهذا كله أن الشفاعة ثابتة ومأذون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها لكل من مات مؤمناً . فالطلب للشفاعة كأنه يتوسل إلى الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يحفظ

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم : ٦٤٦٧، والحاكم في المستدرك برقم : ٣٤٤٢.

عليه الإيمان إلى أن يتوفاه الله فيدخل في شفاعة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويكون من أهلها ، وهذا كله ظاهر لا يخفى إلا على من انطمست بصيرته والعياذ بالله تعالى . ومما يعتقده هؤلاء المنكرون للزيارة والتوسل منع النداء للميت والجماد[1] ويقولون إن ذلك كفر وإشراك وعبادة لغير الله تعالى ن وهذا أيضاً باطل ومردود ولا مستند لهم فيه ، وشبهتهم التي يتمسكون بها أنهم يزعمون أن النداء دعاء وكل دعاء عبادة بل الدعاء مخ العبادة ، وحملوا كثيراً من الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على الموحدين الذين يصدر منهم النداء المذكور وهذا تلبيس في الدين توصلوا به إلى تضليل كثير من الموحدين .

---

(١) يعني أن المنكرين للتوسل يقولون : إن الجسم بعد مفارقة الروح صار جماداً ، وهم محجوجون بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار) فالجسم ينعم تبعاً لتنعم الروح ويعذب كذلك ، ولو كان جماداً لما نُعِّم أو عُذّب . اهـ.

وحاصل الرد عليهم أن النداء قد يسمى دعاء كما في قوله تعالى ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ لكنه لا يسمى عبادة ، فليس كل دعاء عبادة .

ولو كان كل نداء دعاء وكل دعاء عبادة لشمل ذلك نداء الأحياء والأموات ، فيكون كل نداء ممنوعاً مطلقاً سواءً كان للأحياء والأموات أم للحيوانات والجمادات ، وليس الأمر كذلك ، وإنما النداء الذي يكون عبادة هو نداء من يعتقد ألوهيته واستحقاقه للعبادة فيرغبون إليه ويخضعون بين يديه .

فالذي يوقع في الإشراك هو اعتقاد ألوهية غير الله تعالى ، أو اعتقاد التأثير لغير الله تعالى ، . وأما مجرد النداء لمن لا يعتقدون ألوهيته وتأثيره أو استحقاق للعبادة فإنه ليس عبادة ولو كان ميتاً أو غائباً أو جماداً، وقد ورد في أحاديث كثيرة نداء الأموات والجمادات .

فقولهم كل نداء دعاء وكل دعاء عبادة غير صحيح على إطلاقه وعمومه ، ولو كان الأمر كذلك لا متنع نداء الحي

والميت فإنهما مستويان في أن كلا منهما لا تأثير له في شيء .

ولا يعتقد أحد من المسلمين ألوهية غير الله تعالى ولا تأثير أحد سوى الله تعالى ، فأن قالوا إن نداء الحي والطلب منه لشيء من الأشياء إنما هو لكونه قادراً على فعل ذلك الشيء الذي طلب منه .. وأما الميت والجماد فإنه عاجز ولا قدرة له على فعل شيء من الأشياء ، فنقول لهم : اعتقادكم أن الحي قادر على بعض الأشياء يستلزم اعتقادكم أن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية وهو اعتقاد فاسد ومذهب باطل .

فإن اعتقاد أهل السنة والجماعة أن الخالق للعباد وأفعالهم هو الله وحده لا شريك له ، والعبد ليس له إلا الكسب الظاهري ، قال الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ فيستوي الحي والميت والجماد في أن كلا منهم لا خلق له ولا تأثير، والمؤثر هو الله تعالى وحده ، فالذي يقدح في التوحيد هو اعتقاد التأثير لغير الله أو اعتقاد الألوهية واستحقاق العبادة لغير الله ، وأما مجرد النداء من غير اعتقاد شيء من ذلك فلا

ضرر والأحاديث التي ورد فيها النداء للأموات والجمادات من غير اعتقاد الألوهية والتأثير كثيرة :

منها حديث الأعمى لتي تقدمت روايته عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه فإنه فيه «**يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك**» وتقدم أن الصحابة رضي الله عنهم استعملوا ذلك الدعاء بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم .

وحديث بلال بن الحارث المتقدم أيضاً فإن فيه : أنه جاء إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال : يا رسول الله استسق لأمتك ، ففيه النداء بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم ، والخطاب بالطلب منه أن يستسقي لأمته .

ومن ذلك الأحاديث الواردة في زيارة القبور منها النداء والخطاب كقوله «**السلام عليكم يا أهل القبور السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين إن شاء الله بكم لاحقون**» ففيها نداء وخطاب ، وهي أحاديث كثيرة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها .

وتقدم أن السلف والخلف من أهل المذاهب الأربعة استحبوا للزائر أن يقول تجاه القبر الشريف «**يا رسول الله إني جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي**».

وقد جاءت صورة النداء أيضاً في التشهد الذي يقرأه الإنسان في كل صلاة حيث يقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته .

وصح عن بلال بن الحارث رضي الله عنه أنه ذبح شاة عام القحط المسمى عام الرمادة فوجدها هزيلة فصار يقول : وامحمداه وامحمداه .

وصح أيضاً أن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما قاتلوا مسيلمة الكذاب كان شعارهم وامحمداه وامحمداه .

وفي الشفاء للقاضي عياض أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما خدلت رجله مرة فقيل له اذكر أحب الناس إليك ، فقال وامحمداه فانطلقت رجله .

وجاء في الخطاب والنداء للجمادات أحاديث كثيرة منها: أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا نزل أرضاً قال : «**يا**

أرض ربي وربك الله»[1] فهذا نداء وخطاب لجماد ولا كفر ولا إشراك فيه : إذ ليس في اعتقاد الألوهية واستحقاق عبادة ولا اعتقاد تأثير لغير الله تعالى.

وفي ذكر الفقهاء في آداب السفر : أن المسافر إذا انفلتت دابته بأرض ليس بها أنيس فليقل : يا عباد الله احبسوا ، وإذا ضل شيئاً أو أراد عوناً فليقل يا عباد الله أعينوني أو أغيثوني ، فإن لله عباداً لا تراهم .

واستدل الفقهاء على ذلك بما رواه ابن السني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول لله صلى الله عليه وآله وسلم «**إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : يا عباد الله احبسوا فإن لله عباداً يجيبونه**»[2] ففيه نداء وطلب نفع أي التسبب في ذلك من عباد الله الذين لم يشاهدهم . وفي حديث آخر رواه الطبراني أنه صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه برقم : ٦١٣٧.

(٢) ذكر في فيض القدير ١/٣٠٧.

قال : «**إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عوناً وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل يا عباد الله أعينوني**» وفي رواية «**أغيثوني فإن لله عباداً لا تروهم**» قال العلامة ابن حجر في حاشيته على إيضاح المناسك : وهو مجرب كما قاله الراوي للحديث المذكور .

وروى أبو داود وغير عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال «**يا أرض ربي وربك الله ، أعوذ بالله من شرك ومن شرّ ما فيك ومن شرّ ما خلق فيك وشرّ ما يدب عليك ، أعوذ بالله من أسد وأسود ومن الحية والعقرب ومن شرّ ساكن البلد ووالد وما ولد**»[1] وذكر الفقهاء أنه يسن للمسافر الإتيان بهذا الدعاء عند إقبال الليل ، وفيه النداء والخطاب للجماد .

وروى الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه برقم : ٦١٣٧.

والدارمي عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه (أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا رأى الهلال قال : ربي وربك الله) ففيه خطاب للجماد .

وصح (أنه لما توفي صلى الله عليه وآله وسلم أقبل أبو بكر رضي الله عنه حين بلغه الخبر ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكى وقال : بأبي وأمي طبت حياً وميتاً ، اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالك) وفي رواية للإمام أحمد _فقبل جبهته ثم قال وانبياه ، ثم قبلها ثانياً وقال : واصفياه ، ثم قبلها ثالثاً وقال : واخليلاه) ففي ذلك نداء وخطاب له صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته ولما تحقق عمر رضي الله عنه وفاته صلى الله عليه وآله وسلم بقول أبي بكر رضي الله عنه قال وهو يبكي : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه فلما كثروا واتخذت منبراً لتسمعهم حن الجذع لفاقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك أولى بالحنين عليك حين فاقتهم ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن

جعل طاعتك طاعته فقال : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم فقال ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ ﴾ بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون ﴿ يَـٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا ﴾ بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد اتبعك في قصر عمرك ما لم يتبع نوحاً في كبر سنه وطول عمره . فانظر إلى هذه الألفاظ التي نطق بها عمر رضي الله عنه فقد تعدد فيها النداء له صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته وقد رواها كثير من أئمة الحديث ، وذكرها القاضي عياض في الشفاء والقسطلاني في المواهب والغزالي في الإحياء وابن الحاج في

المدخل فيبطل بها وبغيرها من الأدلة قول المانعين للنداء مطلقاً القائلين إن كل نداء دعاء وكل دعاء عبادة .

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالت لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «**يا أبتاه أجاب رباه دعاه ؛ يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه جبريل ننعاه ، وفي رواية : إلى جبريل نعاه**»[1] والنعي هو الإخبار بالموت ؛ ففي هذا الحديث أيضاً نداؤه صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته .

ورثته عمته صفية بمراثي كثيرة، قالت في مطلع قصيدة منها:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا

وكنت بنا براً ولم تك جافيا

ففي هذا البيت أيضا نداؤه صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته ولم ينكر عليها أحد من الصحابة مع حضورهم وسماعهم له .

---

(١) أخرجه البخاري برقم : ٤١٩٣ .

ومما جاء من النداء للميت التلقين له بعد الدفن ، وقد ذكره كثير من الفقهاء واستندوا في ذلك إلى حديث الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه واعتضد بشواهد كثيرة . وصورته أن يقول للميت عند قبره بعد دفنه : يا عبد الله ابن أمة الله اذكر العهد الذي خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حقّ وأن النار حقّ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ، قل . رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبياً وبالكعبة قبلة ، وبالمسلمين إخواناً ، ربي الله لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم . ففي التلقين الخطاب والنداء للميت فكيف يمنعون النداء مطلقاً؟ .

ومن النداء للميت ما جاء في الحديث المشهور حيث نادى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كفار قريش المقتولين يوم بدر بعد إلقائهم في القليب ، رواه البخاري وأصحاب السنن ، وذكروا أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم جعل يناديهم بأسمائه وأسماء آبائهم ويقول : «**أيسركم أنكم أطعتم الله**

ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟».

وأما ما جاء من الآثار عن الأئمة الأحبار والعلماء الأخيار والأولياء الكبار مما يدل على جواز ذلك النداء والخطاب فشيء كثير تنقضي دون نقله الأعمال ومضى على ذلك القرون والأعصار ولا وقع منهم إنكار ، فكيف يجوز الإقدام على تكفير المسلمين بشيء قام ثبوته بالبراهين . وفي الحديث الصحيح «**من قال لأخيه المسلم يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه**»[1] قال العلماء : ترك قتل ألف كافر أولى من إراقة دم امرئ مسلم ، فيجب الاحتياط في ذلك فلا يحكم على أحد من أهل القبلة بالكفر إلا بأمر واضح قاطع للإسلام .

ورأيت رسالة للشيخ محمد سليمان الكردي المدني صاحب الحواشي على مختصر بأفضل في الفقه على مذهب

---

(١) أخرجه البخاري برقم ٥٧٥٢.

الإمام الشافعي رضي الله عنه ، قال في تلك الرسالة يخاطب محمد بن عبد الوهاب حين قام بالدعوة ، وكان محمد بن عبد الوهاب من تلامذة الشيخ محمد بن سليمان المذكور وقرأ عليه بالمدينة المنورة ، قال في تلك الرسالة : يا ابن عبد الوهاب سلام على من اتبع الهدى ، فإني أنصحك لله تعالى أن تكف لسانك عن المسلمين ، فإن سمعت من شخص أنه يعتقد مثل ذلك المستغاث به من دون الله تعالى فعرّفه الصواب واذكر له الأدلة على أنه لا تأثير لغير الله تعالى ، فإن أبى فكفره حينئذ بخصوصه ، ولا سبيل لك إلى تكفير السواد الأعظم من المسلمين وأنت شاذ عن السواد الأعظم، فنسبه الكفر إلى من شذ عن السواد الأعظم أقرب لأنه اتبع غير سبيل المؤمنين ، قال تعالى ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ و«**إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**» اهـ .

بيان أن المانعين للزيارة والتوسل قد تجاوزوا الحد

والحاصل أن هؤلاء المانعين للزيارة والتوسل قد تجاوزوا الحد فكفروا أكثر الأمة واستحلوا دمائهم وأموالهم وجعلوهم مثل المشركين الذين كانوا في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وقالوا إن الناس مشركون في توسلهم بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وبغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين وفي زيارتهم قبره صلى الله عليه وآله وسلم وندائهم له بقوله يا رسول الله نسأل الشفاعة ، وحملوا الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على خواص المؤمنين وعوامهم، كقوله تعالى ﴿ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ

ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾

وقوله تعالى ﴿ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ ﴾ وقوله تعالى ﴿ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ

ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورًا ﴾ وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير ، كلها حملوا الدعاء فيها على النداء ثم حملوها على المؤمنين الموحدين .

وقالوا : إن من استغاث بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو بغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين أو ناداه أو سأله الشفاعة فإنه يكون مثل هؤلاء المشركين ويكون داخلاً في عموم هذه الآيات ، وإنهم مثل المشركين الذين كانوا يقولون ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ فإن المشركين ما اعتقدوا في الأصنام التأثير وأنها تخلق شيئاً بل كانوا يعتقدون أن الخالق هو الله تعالى بدليل قوله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ

ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ فما حكم الله عليهم بالكفر والإشراك إلا لقولهم ﴿ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ فهؤلاء مثلهم .

وقالوا : إن الوحيد نوعان : توحيد الربوبية وهو الذي أقر به المشركون ، وتوحيد الألوهية وهو الذي أقر به الموحـــدون وهو الذي يدخلك في دين الإسلام . وأما توحيد الربوبية فلا يكفي .

وكلامهم كله باطل لأن الدعاء الذي في الآيات بمعنى العبادة وهم لبّسوا على الخلق وجعلوه بمعنى النداء وقد علمت بطلانه من النصوص السابقة . وأما جعلهم التوحيد نوعين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية فباطل أيضاً ، فإن توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ ولم يقل ألست بإلهكم ، فاكتفى منهم بتوحيد الربوبية، ومن المعلوم أن من أقر لله بالربوبية فقد أقرّ له بالألوهية إذ ليس الرب غير الإله بل هو الإله بعينه . وفي

الحديث «**إن الملكين يسألان العبد في قبره فيقولان له : من ربك ؟ ولم يقولا له من إلهك ؟**» فدل على أن توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية . ومن العجب إن هؤلاء القوم يأتيهم المسلم فيقول : أشهد أن لا إله إلا اله وأشهد أن محمد رسول الله ، فيقولون له أنت لم تعرف التوحيد ، وتوحيدك هذا توحيد الربوبية وما عرفت توحيد الألوهية ، فيستحلون دمه وماله بالتلبيسات الباطلة ، وهل للكافر توحيد صحيح لأخرجه من النار إذ لا يبقى فيها موحد .

فهل سمع المسلمون في الأحاديث والسير أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قدمت عليه أجلاف العرب ليسلموا على يده يفصل لهم توحيد الربوبية والألوهية ، ويخبرهم أن توحيد الألوهية هو الذي يدخلهم في دين الإسلام أو يكتفي منهم بمجرد الشهادتين وظاهر اللفظ ويحكم بإسلامهم ، فما هذا الافتراء والزور على الله ورسوله ، فإن من موحد الرب فقد وحد الإله ، ومن أشرك بالرب أشرك بالإله ن فليس للمسلمين إله غير الرب ، فإذا قالوا لا إله إلا

الله إنما يعتقدون أنه هو ربهم فينفون الألوهية عن غيره كما ينفون الربوبية عن غيره أيضاً ويثبتون له الوحدانية في ذاته وصفاته وأفعاله .

والذي أوقع المشركين في الشرك والكفر ليس مجرد قولهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) كما زعم هذا القائل بل اعتقادهم أن غير الله قد يكون إلهاً يستحق العبادة ، وإن كانوا يعتقدون أن الخالق والمؤثر هو الله تعالى ، فلما اعتقدوا ألوهية غير الله واستحقاقه وأقيمت عليهم الحجة بأنهم لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً ولا يخلقون وهم يخلقون قالوا (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فاعتقاد الألوهية واستحقاق العبادة لغيره هو الذيأوقعهم في الشؤك و لم ينفعهم اعتقادهم أن الخالق والمؤثر هو الله مع وجود اعتقادهم ألوهية غير الله واستحقاقه العبادة . وأما المسلمون فإنهم ولله الحمد بريئون من ذلك إذ لا يعتقدون شيئاً يستحقّ الألوهية والعبادة غير الله ، فهذا هو الفرق بين الحالتين . وأما هؤلاء الجاهلون المكفرون للمسلمين فإنهم لما لم يعرفوا الفرق بين الحالتين تخبطوا وقالوا : إن

التوحيد نوعان : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوصلوا بذلك إلى تكفير المسلمين .

فتأمل فيما تقدم من النصوص يتضح لك الحال إن شاء الله تعالى وتعلم أن ما عليه السواد الأعظم هو الحق الذي لا محيض عنه ، ومما يعتقده هؤلاء الملاحدة المكفرون للمسلمين أن قصد الصالحين والاعتقاد فيهم والتبرّك بهم شرك أكبر وهذا أيضاً باطل ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر صاحبيه عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما أن يقصداً أويساً القرني ويسألاه الدعاء والاستغفار كما في صحيح مسلم .

جواز التبرك بآثار الصالحين

وأما التبرك بآثار الصالحين فقد كان الصحابة رضي الله عنهم يزدحمون على ماء وضوئه يتبرّكون به ، وإذا تنخم أو بصق يأخذون ذلك ويتمسحون به ، وازدحموا على الحلاق عند حلق رأسه صلى الله عليه وآله وسلم واقتسموا شعره يتبركون به . وشرب عبد الله بن الزبير دمه صلى الله عليه وآله وسلم لما احتجم . وشربت أم أيمن بوله فقال لها : صحة يا أم أيمن ، وكل ذلك ثابت في الأحاديث الصحيحة ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو معاند ، بل ثبت « أنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء سقاية العباس رضي الله عنه ليشرب من ماء السقاية ، فأمر العباس ابنه عبد الله أن يأتي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بماء آخر من الدار غير ما يشرب منه المسلمون لأنه استقذره ، وقال : يا رسول الله هذا تمسه الأيدي نأتيك بماء غيره ، فقال لا إنما أريد بركة المسلمين وما مسته أيديهم».

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ذلك فما بالك بغيره ، فكنا مسلم له نور وبركة ، ولا نعتقد التأثير لغير الله تعالى ، فطلب بركة الصالحين بالتماس آثارهم ليس فيه شيء من الإشراك ولا الحرمة ، وإنما هؤلاء القوم يلبسون على المسلمين توصلاً إلى أغراضهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فلا يعتقدون موحداً إلا من تبعهم فيما يقولون فصار الموحدون على زعمهم أقل من كل قليل.

بيان ردود أهل العلم على محمد بن عبد الوهاب

كان محمد بن عبد الوهاب الذي ابتدع هذه البدعة يخطب للجمعة في مسجد الدرعية ويقول في كل خطبة : ومن توسل بالنبي فقد كفر ، وكان أخوه سليمان بن عبد الوهاب من أهل العلم ، فكان ينكر عليه إنكاراً شديداً في كل ما يفعله أو يأمر به و لم يتبعه في شيء مما ابتدعه، وقال له أخوه سليمان يوماً : كم أركان الإسلام يا محمد بن عبد الوهاب ؟ فقال خمسة ، فقال أنت جعلتها ستة ، السادس : من لم يتبعك فليس بمسلم هذا عندك ركن سادس للإسلام.

وقال رجل آخر يوماً لمحمد بن عبد الوهاب : كم يعتق الله كل ليلة في رمضان ؟ فقال له يعتق في كل ليلة مائة ألف ، وفي آخر ليلة يعتق مثل ما أعتق في الشهر كله ، فقال له لم يبلغ من اتبعك عشر عشر ما ذكرت فمن هؤلاء المسلمين الذين يعتقهم الله تعالى وقد حصرت المسلمين فيك وفيمن

اتبعك ، فبهت الذي كفر .

ولما طال النزاع بينه وبين أخيه خاف أخوه أن يأمر بقتله فارتحل إلى المدينة المنورة وألف رسالة في الرد عليه وأرسلهل له فلم ينته . وألف كثير من علماء الحنابلة رسائل في الرد عليه وأرسلوها له فلم ينته .

وقال له رجل آخر مرة وكان رئيساً على قبيلة بحيث أن لا يقدر أن يسطوا عليه : ما تقول إذا أخبرك رجل صادق ذو دين وأمانة وأنت تعرف صدقه بأن قوماً كثيرين قصدوك وهم وراء الجبل الفلاني فأرسلت ألف خيال ينظرون القوم الذين وراء الجبل فلم يجدوا أثراً ولا أحد منهم ، بل ما جاء تلك الأرض أحد منهم أتصدق الألف أم الواحد الصادق عندك ؟ فقال أصدق الألف ، فقال له : إن جميع المسلمين من العلماء الأحياء والأموات في كتبهم يكذبون ما أتيت به ويزيفونه فنصدقهم ونكذبك ، فلم يعرف جواباً لذلك.

وقال له رجل آخر مرة : هذا الدين الذي جئت به متصل أم منفصل ؟ فقال له حتى مشايخي ومشايخهم إلى ستمائة سنة

كلهم مشركون ، فقال له الرجل : إذن منفصل لا متصل ، فعمن أخذته ؟ فقال وحي إلهام كالخضر ، فقال له: إذن ليس ذلك محصوراً فيك ، كل أحد يمكنه أن يدعي وحي الإلهام الذي تدعيه ، ثم قال له : إن التوسل مجمع عليه أهل السنة حتى ابن تيمية فإنه ذكر فيه وجهين و لم يذكر أن فاعله يكفر به ، حتى الرافضة والخوارج والمبتدعة و كافة المبتدعة يقولون بصحة التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا وجه لك في التكفير أصلاً ، فقال له محمد بن عبد الوهاب : إن عمر استسقى بالعباس فلم يستسقي بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ ومقصد محمد بن عبد الوهاب بذلك أن العباس كان حياً وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ميت فلا يستسقى به، فقال له ذلك الرجل : هذه حجة عليك ، فإن استسقاء عمر بالعباس إنما كان لإعلام الناس بصحة الاستسقاء والتوسل بغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وكيف تحتج باستسقاء عمر بالعباس وعمر هو الذي روى حديث توسل آدم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يخلق ، فالتوسل بالنبي صلى الله

عليه وآله وسلم كان معلوماً عند عمر وغيره ، إنما أراد عمـــر أن يبين للناس ويعلمهم صحة التوسل بغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فبهت وتحير وبقى على عماوته ومقابحه الشنيعة.

بيان طرف من مقابحه

ومن مقابحه أنه لما منع الناس من زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج ناس من الأحساء وزاروا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبلغه خبرهم ، فلما رجعوا مروا عليه بالدرعية ، فأمر بحلق لحائهم ثم أركبهم مقلوبين من الدرعية إلى الأحساء.

وبلغه مرة أن جماعة من الذين لم يتابعوه من الآفاق البعيدة قصدوا الزيارة والحج وعبروا على الدرعية ، فسمعه بعضهم يقول لمن اتبعه : خلوا المشركين يسيرون في طريق المدينة ، والمسلمين : يعني أتباعه يخلفون معنا .

وكان ينهي عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتأذى من سماعهم وينهى عن الإتيان بها يوم الجمعة وعن الجهر بها على المنابر ، ويؤذي من يفعل ذلك ويعاقبه أشد العقاب، حتى أنه قتل رجل أعمى كان مؤذناً صالحاً ذا صوت حسن نهاه عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنارة بعد الأذان فلم ينته وأتى بالصلاة على النبي

صلى الله عليه وآله وسلم فأمر بقتله فقتل ، ثم قال : إن الربابة في بيت الخاطئة : يعني أن الزانية أقل إثماً ممن ينادي بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنائر ، ويلبس على أصحابه بأن ذلك كله محافظة على التوحيد .

وكان يمنع أتباعه من مطالع كتب الفقه والتفسير والحديث وأحرق كثيراً منها ، وأذن لكل من اتبعه أن يفسر القرآن فهمه حتى همج الهمج من أتباعه ، فكان كل واحد منهم يفعل ذلك ولو كان لا يحفظ القرآن و لا شيئاً منه ، فيقول الذي لا يقرأ منه لآخر يقرأ : اقرأ علي حتى أفسر لك ، فإذا قرأ عليه يفسر برأيه ، وأمرهم أن يعملوا ويحكموا بما يفهمونه وجعل ذلك مقدماً على كتب العلم ونصوص العلماء.

وكان يقول في كثير من الأقوال الأئمة الأربعة ليست بشيء . وتارة يتستر ويقول : إن الأئمة على حق ويقدح في أتباعهم من العلماء الذين ألفوا في المذاهب الأربعة وحرروها ويقول إنهم ضلوا وأضلوا وتارة يقول : إن الشريعة واحدة فما لهؤلاء جعلوها مذاهب أربعة هذا كتاب الله وسنة رسوله

صلى الله عليه وآله وسلم لا نعمل إلا بهما ولا نقتدي بقول مصري وشامي وهندي : يعني بذلك أكابر علماء الحنابلة وغيرهم ممن لهم تآليف في الرد عليه ، فكان ضابط الحق عنده ما وافق هواه وإن خالف النصوص الشرعية وإجماع الأمة ، وضابط الباطل عنده ما لم يوافق هواه وإن كان على نص جلي أجمعت عليه الأمة.

وكان ينتقص النبي صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً بعبارات مختلفة ويزعم أن قصده المحافظة على التوحيد ؛ فمنها أن يقول إنه طارش ، وهو في لغة أهل المشرق بمعنى الشخص المرسل من قوم إلى آخرين ، فمراده أنه صلى الله عليه وآله وسلم حامل كتب : أي غاية أمره أنه كالطارش الذي يرسله الأمير أو غير في أمر لأناس ليبلغهم إياه ثم ينصرف ؛ ومنها أنه كان يقول : نظرت في قصة الحديبية فوجدت بها كذا وكذا ، إلى غير ذلك مما يشبه هذا حتى إن أتباعه كانوا يفعلون مثل ذلك أيضاً ويقولون مثل قوله بل أقبح مما يقول ويخبرونه بذلك فيظهر الرضا وربما أنهم قالوا ذلك بحضرته فيرضى به ، حتى

أن بعض أتباعه كان يقول : عصاي هذه خير من محمد لأنها ينتفع بها في قتل الحية ونحوها ومحمد قد مات ولم يبق فيه نفع أصلاً وإنما هو طارش وقد مضى .

قال بعض من ألف في الرد عليه : إن ذلك كفر في المذاهب الأربعة وهو كفر عند جميع أهل الإسلام .

بيان نشأته وظهور أمره

وكان محمد بن عبد الوهاب في مبتدأ أمره يطلب العلم بالمدينة وأصله من بني تميم ، وكان من طلبة العلم بالمدينة يتردّد بينها وبين مكة ، فأخذ عن كثير من علماء المدينة منهم : الشيخ محمد بن سليمان الكردي الشافعي والشيخ محمد حياة السند الحنفي ، وكان الشيخان المذكوران وغيرهما من أشياخه يفترسون فيه الإلحاد والضلال ، ويقولون : سيضل هذا ويضل الله به من أبعده وأشقاه ، فكان الأمر كذلك وما أخطأت فراستهم فيه . وكان والده عبد الوهاب من العلماء الصالحين فكان أيضاً يفترس في ولده المذكور الإلحاد ويذمه كثيراً ويحذر الناس منه ، وكذا أخوه سليمان بن عبد الوهاب فكان ينكر من أحدثه من البدع والضلالات والعقائد الزائغة . وتقدم أنه ألف كتاباً في الرد عليه .

وكانت ولادة محمد بن عبد الوهاب سنة ١١١١ ألف

ومائة وأحد عشر وعاش عمراً طويلاً حتى بلغ عمره اثنين وتسعين سنة فإنه توفي سنة ١٢٠٦ ألف ومائتين وستة .

ولما أراد إظهار ما زينه له الشيطان من البدعة والضلالة انتقل من المدينة ورحل إلى المشرق وصار يدعوا الناس إلى التوحيد وترك الشرك ، وزخرف لهم القول ويفهمهم أن ما عليه الناس كله شرك وضلال ويظهر لهم عقيدته شيئاً فشيئاً ، فتبعه كثيراً من غوغاء الناس وعوام البوادي.

وكان ابتداء ظهور أمره في الشرق سنة ١١٤٣ ألف ومائة وثلاثة وأربعين ، واشتهر أمره بعد الخمسين وألف ومائة بنجد وقراها ، فتبعه وقام بنصرته أمير الدرعية وجعل ذلك وسيلة إلى اتساع ملكه ونفاذ أمره ، فحمل أهل الدرعية على متابعة محمد بن عبد الوهاب فيما يقول فتبغه أهل الدرعية وما حولها، وما زال يطيعه على ذلك كثير من أحياء العرب حيّ بعد حي وقبيلة بعد قبيلة حتى قوى أمره فخافته البادية ، فكان يقول لهم : إنما أدعوكم إلى التوحيد وترك الشرك بالله ، ويزين لهم القول وهم بوادي في غاية الجهل لا يعرفون شيئاً

من أمور الدين ، فاستحسنوا ما جاءهم به وكان يقول لهم : إني أدعوكم إلى الدين وجميع ما هو تحت السبع الطباق مشرك على الإطلاق ومن قتل مشركاً فله الجنة ، فتابعوه وصارت نفوسهم بهذا القول مطمئنة فكان محمد بن عبد الوهاب بينهم كالنبي في أمته، لا يتركون شيء مما يقول ولا يفعلون شيئاً إلا بأمره ويعظمونه غاية التعظيم ، وإذا قتلوا إنساناً أخذوا ماله وأعطوا الأمير منه الخمس واقتسموا الباقي ، وكانوا يمشون حيثما مشى ويأتمرون له بما شاء والأمير ينفذ كل ما يقول حتى اتسع له الملك .

وكانوا قبل اتساع ملكهم وتطاير شررهم أرادوا الحج في دولة الشريف مسعود بن سعيد ابن سعد بن زيد ، وكانت ولاية الشريف مسعود إمارة مكة سنة ١١٤٦ ستة وأربعين ومائة وألف ، ووفاته سنة ١١٦٥ خمسة وستين ومائة وألف فأرسلوا يستأذنونه في الحج وغاية مرادهم إظهار عقيدهم وحمل أهل الحرمين عليها ، فأرسلوا قبل ذلك ثلاثين من علمائهم ظناً منهم أهم يفسدون عقائد أهل الحرمين ويدخلون

عليهم الكذب والمين وطلبوا الإذن بالحج ولو بشـــيء مقـــرر عليهم كل عام يدفنونه ، وكان أهل الحـــرمين قـــد سمعـــوا بظهورهم في نجد وإفسادهم عقائد البوادي ولم يعرفوا حقيقة ذلك ، فلما وصل علماؤهم مكة أمر الشـــريف مســـعود أن يناظر علماء الحرمين العلماء الذين بعثوهم فناظرهم فوجدوهم ضحكة ومسخرة كحمر مستنفرة فرت من قسورة ، ونظروا إلى عقائدهم فإذا هي مشتملة على كثير من المكفرات فبعد أن أقاموا عليهم الحجة والبرهان أمر الشريف مســـعود قاضـــي الشرع أن يكتب حجة بكفـــرهم الظـــاهر لـــيعلم أن الأول والآخر ، وأمر بسجنهم ووضعهم في السلاسل والأغـــلال ، فقبض منهم جماعة وسجنهم وفر الباقون ووصلوا إلى الدرعية وأخبروا بما شاهدوا ، فعتا أميرهم واستكبر ونأى عـــن هـــذا المقصد وتأخر إلى أن مضت دولة الشريف مسعود وتوفي سنة ١١٦٥ خمس وستين ومائة وألف ، وولي إمارة مكة أخـــوه الشريف مساعد بن سعيد ، فأرسلوا أيضاً يستأذنونه في الحج فأبى وامتنع من الإذن لهم فضعفت عن الوصول مطـــامعهم ،

فلما مضت دولة الشريف مساعد وتوفي سنة ١١٨٤ أربع وثمانين ومائة وألف ، ووولي إمارة مكة أخوه الشريف أحمد بن سعيد أرسل أمير الدرعية جماعة من علمائهم ، فأمر العلماء أن يختبروهم فاختبروهم فوجدوهم لا يدينون إلا بدين الزنادقة ، فأبى أن يأذن لهم في الحج .

ثم انتزع إمارة مكة منه ابن أخيه الشريف سرور بن مساعد سنة ١١٨٦ ست وثمانين ومائة وألف ، فأرسلوا في مدة الشريف سرور يستأذنون في الحج ، فأجابهم بأنكم إن أردتم الوصول آخذ منكم في كل سنة ما آخذ من الأعاجم وزيادة على ذلك مائة من الخيل الجياد فعظم عليهم دفع ذلك وأن يكونوا مثلهم .

فلما توفي الشريف سرور سنة ١٢٠٢ ألف ومائتين واثنين وولي إمارة مكة أخوه غالب أرسلوا أيضاً يستأذنون في الحج فمنعهم وهددهم بالركوب عليهم وجهز عليهم جيشاً في سنة ١٢٠٥ ألف ومائتين وخمسة وتتابع بينه وبينهم القتال والحرب من سنة ١٢٠٥ ألف ومائتين وخمسة إلى سنة ١٢٢٠ ألف

ومائتين وعشرين حتى دخلوا مكة بعد أن عجز عن دفعهم ووقع بينه وبينهم وقعات كثيرة قبل دخولهم مكة يطول الكلام بذكرها .

ثم قصدوا مكة في الحرام من سنة ١٢١٨ ألف ومائتين وثمانية عشر ، ولم يكن للشريف طاقة لقتالهم ، فترك لهم مكة ونزل إلى جدّة فخرج ناس من أهل مكة إليهم قبل دخولهم بمرحلتين وأخذوا منهم الأمان لأهل مكة فدخلوا بالأمان.

ثم توجوا إلى جدة لقتال الشريف غالب فقاتلهم وأطلق عليهم المدافع فلم يستطيعوا دخول جدة ، فارتحلوا إلى ديارهم في شهر صفر من سنة ١٢١٨ ألف ومائتين وثمانية عشر وأبقوا بمكة من يقوم بحفظها من جماعتهم .

وفي شهر ربيع الأول من السنة المذكورة رجع الشريف غالب من جدة ومعه الباشا صاحب جدة وكثير من العساكر، وأخرج من كان بمكة من جماعتهم واستولى على مكة كما كان ، ثم تتابع بينه وبينهم الحرب والغزوات إلى سنة ١٢٢٠ عشرين ومائتين وألف ، فتغلبوا وملكوا جميع الأطراف

وحاصروا مكة حتى اشتد البلاء وعم الغلاء وأكـــل النـــاس الكلاب والجيف ، ثم عقد الشريف غالـــب معهـــم الصـــلح فدخلوا مكة بالصلح واستمر ملكهـــم بهـــا إلى ســـنة ســـبع وعشرين ومائتين وألف .

فأمر مولانا السلطان محمود الوزير المعظم والمشير المفخـــم بمصر محمد علي الباشا فجهز عليهم الجيوش حتى أخرجهم من الحرمين ، ثم بعث الجيوش إلى قتالهم في ديارهم وســـار مـــع بعض الجيوش بنفسه حتى استأصلهم وقطع دابـــرهم . وأرخ بعض العلماء تاريخ خروجهم من مكة بقولـــه قطـــع دابـــر الخوارج سنة ١٢٢٧ والكلام على وقـــائعهم ومـــا فعلـــوه بالمسلمين يطول ، فلا حاجة لذكره .

وكان أتباع محمد بن عبد الوهاب إذا أراد أحداً أن يتبعهم على دينهم طوعاً أو كرهاً كانوا يأمرونه بالإتيان بالشـــهادتين أولاً يقولون له اشهد على نفسك إنك كنت كافراً واشـــهد على والديك أنهما ماتا كافرين ، واشهد على فلان وفلان أنه كان كافراً ويسمون له جماعة من أكابر العلماء الماضين فـــإن

شهدوا بذلك قبلوهم وإلاّ أمروا بقتلهم .

وكانوا يصرحون بتكفير الأمة من منذ ستمائة سنة . وأول من صرّح بذلك محمد بن عبد الوهاب فتبعوه على ذلك، وإذا دخل إنسان في دينهم وكان قد حج حجة الإسلام قبل ذلك يقولون له حج ثانياً فإن حجتك الأولى فعلتها وأنت مشرك فلا تسقط عنك الحج ، ويسمون من اتبعهم من الخارج المهاجرين ، ومن من أهل بلدهم يسموهم الأنصار .

وكان محمد بن عبد الوهاب يدعي الانتساب إلى مذهب الإمام أحمد رضي الله عنه كذباً وزوراً ، والإمام أحمد بريء منه ، ولذلك انتدب كثير من علماء الحنابلة المعاصرين له للرد عليه ، وألفوا في الرد عليه رسائل كثيرة ، حتى أخوه الشيخ سليمان بن عبد الوهاب ألف رسالة في الرد عليه كما تقدم وتمسك في تكفير المسلمين بآيات نزلت في المشركين ، فحملها على الموحدين ، وقد روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في وصف الخوارج أنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المؤمنين . وفي رواية أخرى عن ابن عمر عند غير

البخاري أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال «**أخوف ما أخاف على أمتي رجل متأوّل للقرآن يضعه في غير موضعه**» فهذا وما قبله صادق على ابن عبد الوهاب ومن تبعه .

وأعجب من ذلك كله أنه كان يكتب إلى عماله الذين هم أجهل الجاهلين اجتهدوا بحسب فهمكم وانظروا واحكموا بما ترونه مناسباً لهذا الدين ولا تلتفتوا لهذه الكتب فإن فيها الحق والباطل ، وقتل كثيراً من العلماء والصالحين وعوام المسلمين لكونهم لم يوافقون على ما ابتدعه وكان يقسم الزكاة على ما أمره به شيطانه وهواه ، وكان أصحابه لا يتخذون مذهباً من المذاهب بل يجتهدون كما أمرهم ويتسترون ظاهراً بمذهب الإمام أحمد ويلبسون بذلك على العامة ، وكان ينهى عن الدعاء بعد الصلاة ويقول إن ذلك بدعة وإنكم تطلبون بذلك أجراً .

وقد اعتنى كثير من العلماء من أهل المذاهب الأربعة للرد عليه في كتب مبسوطة عملاً بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (إذا ظهرت البدع وسكت العلم فعليه لعنة الله والملائكة

والناس أجمعين) وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم (ما ظهر أهل بدعة إلا أظهر الله فيهم حجته على لسان من شاء من خلقه) فلذلك انتدب للرد عليه علماء المشرق والمغرب من جميع المذاهب ، والتزم بعضهم في الرد عليه بأقوال الإمام أحمد وأهل مذهبه وسألوه عن مسائل يعرفها أقل طلبة العلم فلم يقدر على الجواب عنها لأنه لم يكن له تمكن في العلوم وإنما عرف هذه النزعات التي زينها له الشيطان .

فممن ألف في الرد عليه وسأله عن بعض المسائل فعجز : العلامة الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عفالق ، فإنه ألف كتاباً جليلاً سماه [تهكم المقلدين بمن ادعى تجديد الدين] وردّ عليه في كل مسئلة من المسائل التي ابتدعها بأبلغ الرد ن ثم سأله عن أشياء تتعلق بالعلوم الشرعية والأدبية بسؤالات أجنبية عن الرسالة كتبها وأرسلها فعجز عن الجواب عن أقلها فضلاً عن أجلها .

فمن جملة ما سأله عنه قوله أسألك عن قوله تعالى : ﴿ وَٱلۡعَـٰدِيَـٰتِ ضَبۡحًا ﴾ إلى آخر السورة التي هي من قصار

المفصل، كم فيها من حقيقة شرعية وحقيقة لغوية وحقيقة عرفية؟ وكم فيها من مجاز مرسل ومجاز مركب واستعارة حقيقية واستعارة وفاقية واستعارة تبعية واستعارة مطلقة واستعارة مجردة واستعارة مرشحة ؟ وأين الوضع والترشيح والتجريد والاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية ؟ وكم فيها من التشبيه الملفوف والمفرد والمركب ؟ وما فيها من المجمل والمفصل؟ وما فيها من الإيجاز والإطناب والمساواة والإسناد الحقيقي والإسناد المجازي المسمى بالمجاز الحكمي والعقلي ؟ وأي موضع فيها وضع المضمر موضع المظهر والعكس ؟ وما موضع ضمير الشأن وموضع الالتفافات وموضع الفصل والوصل وكمال الاتصال وكمال الانقطاع ؟ والجامع بين كل جملتين متعاطفتين ؟ ومحل تناسب الجمل ووجه التناسب ووجه كماله في الحسن والبلاغة وما فيها من إيجاز وقصر وإيجاز وحذف ؟ وما فيها من احتراس وتتميم ، وبين لنا موضع كل ما ذكر ؟ فلم يقدر محمد بن عبد الوهاب على الجواب عن شيء مما سأله عنه.

إخبار النبي بابن عبد الوهاب وأتباعه

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هؤلاء الخوارج في أحاديث كثيرة ، فكانت تلك الأحاديث من أعلام نبوّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنها من الإخبار بالغيب ، وتلك الأحاديث كلها صحيحة بعضها في صحيحي البخاري ومسلم وبعضها في غيرهما.

فمنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم «**الفتنة من ههنا الفتنة من ها هنا وأشار إلى المشرق**» وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «**يخرج ناس من قبل المشرق يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه ، سيماهم التحليق**»[1] انتهى .

والفوق بضم الفاء : موضع الوتر .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم ٤٧٥٤.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «سيكون في أمتي اختلاف وفرقة ، قوم يحسنون القيل ويسيئون الفعل ، يقرءون القرآن لا يتجاوز إيمانهم تراقيهم سيمرقون من الدين مروق السهم من الرمية لا يرجعون حتى يعود السهم إلى فوقه ، هم شرّ الخلق والخليقة ، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء ، من قتلهم كان أولى بالله منهم سيماهم التحليق»[1].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون قول خير البرية يقرءون القرآن لا يتجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة»[2].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم ٢٦٤٩.

(٢) أخرجه مسلم برقم : ١٠٦.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «**أناس من أمتي سيماهم التحليق يقرءون القرآن لا يتجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية هم شرّ الخلق والخليقة**»[1].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «**يخرج ناس من المشرق يقرءون القرآن لا يتجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه سيماهم التحليق**» .

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «**رأس الكفر نحو المشرق والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل**»[2].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «**من ها هنا جاءت الفتن وأشارق نحو المشرق**»[3].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد برقم : ٢١٥٧١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم : ٢١٠٥.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم ٤٧٥٤.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «**غلظ القلوب والجفاء بالمشرق والإيمان في أهل الحجاز**»[1].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «**اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا ، قالوا يا رسول الله : وفي نجدنا ، قال الله بارك لنا في شامنا ، اللهم بارك لنا في يمننا ، وقال في الثالثة : هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان**»[2].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «**يخرج ناس من المشرق يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم كلما قطع قرن نشأ قرن حتى يكون آخرهم مع المسيح الدجال**».

وفي قوله صلى الله عليه وآله وسلم «**سيماهم التحليق**» تنصيص عن هؤلاء القوم الخارجين من المشرق التابعين لابن

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه رقم : ١٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم:٩٩٠، ومسلم برقم: ٢٩٠٥.

عبد الوهاب فيما ابتدعه ، لأنهم كانوا يأمرون من اتبعهم أن يحلق رأسه ولا يتركونه يفارق مجلسهم إذا تبعهم حتى يحلقوا رأسه ولم يقع مثل ذلك قط من أحد الفرق الضالة التي مضت قبلهم ، فالحديث صريح فيهم .

وكان السيد عبد الرحمن الأهدل مفتي زبيد يقول : لا يحتاج أن يؤلف أحد تأليفاً للردّ على ابن عبد الوهاب بل يكفي في الرد عليه قوله صلى الله عليه وآله وسلم «**سيماهم التحليق**» فإنه لم يفعله أحد من المبتدعة غيرهم .

وكان ابن عبد الوهاب يأمر أيضاً بحلق رؤوس النساء اللاتي يتبعنه فأقامت عليه الحجة مرة امرأة دخلت في دينه كرهاً وجددت إسلامها على زعمه ، فأمر بحلق رأسها ، فقالت له : أنت تأمر الرجال بحلق رؤوسهم ، فلو أمرت بحلق لحائهم لساغ لك أن تأمر بحلق رؤوس النساء ، لأن شعر الرأس للمرأة بمنزلة اللحية للرجال ، فبهت الذي كفر ولم يجد لها جواباً ، لكنه إنما فعل ذلك ليصدق عليه وعلى من تبعه قوله صلى الله عليه وآله وسلم «**سيماهم التحليق**» فإن المتبادر منه حلق

الرأس، فقد صدق صلى الله عليه وآله وسلم فيما قال .

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم حين أشار إلى المشرق من حي يطلع قرن الشيطان ، فجاء في رواية «**قرنا الشيطان**» بصيغة التثنية. قال بعض العلماء : المراد من قرني الشيطان مسيلمة الكذاب وابن عبد الوهاب . وجاء في بعض الروايات «**وبها**» يعني نجداً «**الداء العضال**» . قال بعض الشراح وهو الهلاك .

وفي بعض التواريخ بعد ذكر قتال بني حنيفة : قال «**ويخرج في آخر الزمان في بلد مسيلمة رجل يغير دين الإسلام**» وجاء في بعض الأحاديث التي جاء فيها ذكر الفتن قوله صلى الله عليه وآله وسلم «**منها فتنة عظيمة تكون في أمتي لا يبقى بين من العرب إلا دخلته تصل إلى جميع العرب قتلاها في النار واللسان فيها أشد من وقع السيف**» وفي رواية «**ستكون فتنة صماء بكماء عمياء**» : يعني تعمى بصائر الناس فلا يون مخرجاً ويصمون عن استماع الحق «**من**

استشرف لها استشرفت له) وفي رواية «**سيظهر من نجد شيطان تتزلزل جزيرة العرب من فتنته**».

وذكر العلامة السيد علوي بن أحمد بن حسن بن القطب السيد عبد الله الحداد باعلوي في كتابه الذي ألفه في الرد على ابن عبد الوهاب المسمى [جلاء الظلام في الرد على النجدي الذي أضل العوام] وهو كتاب جليل ذكر فيه جملة من الأحاديث ، منها حديث مروي عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أسنده إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال فيه «**سيخرج في ثاني عشر قرناً ، في وادي بني حنيفة رجل كهيئة الثور ، لا يزال يلعق براطمه يكثر في زمانه الهرج والمرج ، يستحلون أموال المسلمين ويتخذونها بينهم متجراً ، ويستحلون دماء المسلمين ويتخذونها بينه مفخراً ، وهي فتنة يعتز فيها الأرذلون والسفل ، تتجارى بينهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه**» قال ولهذا الحديث شواهد تقوى معناه.

ثم قال السيد المذكور في الكتاب الذي مر ذكره :
وأصرح من ذلك أن هذا المغرور محمد بن عبد الوهاب من تميم ، فيحتمل أنه من عقب ذي الخويصرة التميمي الذي جاء في حديث البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «**إن من ضئضئ هذا** (أو في عقب هذا) **قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان ، لئن أدركتهم لأقتلهم قتل عاد**»[1] فكان هذا الخارجي يقتل أهل الإسلام ويدع أهل الأوثان .

ولما قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخوارج قال رجل : الحمد لله الذي أبادهم وأراحنا منهم ، فقال علي رضي الله عنه : كلا والذي نفسي بيده إن منهم لمن هو في

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي رقم : ٤٠٠٤.

أصلاب النساء الرجال لم تحمله النساء وليكونن مع المسيح الدجال .

وجاء في حديث عن أبي بكر رضي الله عنه ذكر فيه بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب وقال فيه «**إن واديهم لا يزال وادي فتن إلى آخر الدهر ، ولا يزال في فتنة من كذابهم إلى يوم القيامة**» وفي رواية «**ويل لليمامة ويل لا فراق له**».

وفي حديث ذكره في مشكاة المصابيح «**سيكون في آخر الزمان قوم يحدثونكم بما لم تسعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم ، لا يضلونكم ولا يفتنونكم**»

وأنزل الله في بني تميم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

وأنزل الله فيهم أيضاً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ .

قال اليسد علوي الحداد المذكور آنفاً ، إن الذي ورد في بني

حنيفة وفي ذم بني تميم ووائل شيء كثير ، ويكفيك أن أغلب الخوارج وأكثرهم منهم ، وأن الطاغية ابن عبد الوهاب منهم.

وجاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال «**كنت في مبدأ الرسالة أعرض نفسي على القبائل في كل موسم ، ولم يجبني أحد جواباً أقبح ولا أخبث من رد بني حنيفة**» قال السيد علوي الحداد : لما وصلت الطائف لزيارة حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما اجتمعت بالعلامة الشيخ طاهر سنبل الحنفي ابن العلامة الشيخ محمد سنبل الشافعي فأخبرني أنه ألف كتاباً في الرد على هذه الطائفة سماه (الانتصار للأولياء الأبرار) وقال لي لعل الله به من لم تدخل بدعة النجدي قلبه ، وأما من دخلت في قلبه فلا يرجى فلاحه، لحديث البخاري «**يمرقون من الدين ، ثم لا يعودون فيه**» .

وأما ما نقل عن بعض العلماء أنه استصوب من فعل النجدي جمع البدو على الصلاة ، وترك الفواحش الظاهرة وقطع الطريق والدعوة إلى التوحيد ، فهو غلط حيث حسن

للناس فعله ، و لم يطلع على ما ذكرناه من منكراته وتكفيره الأمة من ستمائة سنة ، وحرق الكتب الكثيرة ، وقتله كثيراً من العلماء وخواص الناس وعوامهم ، واستباحه دمائهم وأموالهم ، وإظهار التجسيم للباري تعالى ، وعقده الدروس لذلك وتنقصه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأنبياء والمرسلين والأولياء ونبش قبورهم ، وأمر في الأحساء أن تجعل بعض قبور الأولياء محلاً لقضاء الحاجة ، ومنع الناس من قراءة دلائل الخيرات ومن الرواتب الأذكار ، ومن قراءة مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النائر بعد الأذان وقتل من فعل ذلك ، وكان يعرض لبعض الغوغاء الطعام بدعواه النبوّة ، ويفهمهم ذلك من فحوى كلامه ، ومنع الدعاء بعد الصلاة ، وكان يقسم الزكاة على هواه ، وكان يعتقد أن الإسلام منحصراً فيه وفيمن تبعه ن وأن الخلق كلهم مشركون ، وكان يصرح في مجالسه وخطبه بتكفير المتوسل بالأنبياء والملائكة والأولياء ويزعم أن من قال لأحد : مولانا أو سيدنا فهو كافر، ولا يلتفت إلى قول الله تعالى في سيدنا يحيى عليه السلا

«**وسيد**» ولا إلى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم للأنصار «**قوموا لسيدكم**»[1] يعني سعد بن معاذ رضي الله عنه ، ويمنع من زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ويجعله كغيره من الأموات وينكر علم النحو واللغة والفقه والتدريس بهذه العلوم، ويقول إن ذلك بدعة .

ثم قال السيد علوي الحداد في كتابه المتقدم ذكره : والحاصل أن المحقق عندنا من أقواله وأفعاله ما يوجب خروجه عن القواعد الإسلامية ، لاستحلاله أموالاً مجمعاً على تحريمها معلومة من الدين بالضرورة بلا تأويل سائغ مع تنقيصه الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين . وتنقيصهم تعمداً كفر بإجماع الأئمة الأربعة. ا هـ .

وتقدم أنه عاش من العمر اثنتين وتسعين سنة ، لأن ولادته كانت سنة أحد عشر ومائة وألف ، وهلاكه سنة ألف ومائتين وستة ن وأرخ بعضهم وفاته بقوله : بدا هلاك الخبيث

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان رقم : ٥٧٩١.

١٢٠٦ وخلف أولاداً قاموا بالدعوة بعده عبد الله وحسن وحسين وعلي وكانوا يقال لهم أولاد الشيخ .

وكان عبد الله أكبرهم فقام بالدعوة بعد أبيه وخلف سليمان وعبد الرحمن وكان سليمان متعصباً أكثر من أبيه ، فقتله إبراهيم باشا سنة ألف ومائتين وثلاثة وثلاثين ، وقبض على عبد الرحمن وبعثه إلى مصر فعاش مدة بمصر ، ثم مات بمصر .

وأما حسن بن محمد بن عبد الوهاب فخلف عبد الرحمن، وولي مكة في بعض السنين التي كانوا يحكمون فيها بمكة وعاش عبد الرحمن دهراً طويلاً حتى قارب المائة ومات قريباً فخلف عبد اللطيف . وأما حسين بن محمد بن عبد الوهاب فخلف أولاداً كثيرين ولم يزل نسلهم باقياً حتى الآن بالدرعية، يعرفون بأولاد الشيخ ن ونسأل الله أن يهديهم للصواب .

لطيفة :

كان رجل صالح من علماء البلدة التي تسمى بالزبير اسمه الشيخ الجبار يصلي إماماً في مسجد تلك البلدة ، فاتفق أن اثنين تجادلا في شأن هذه الطائفة بعد أن جاء إبراهيم باشا إلى

الدرعية ودمرها ودمر من فيها، فقال أحد الرجلين المتجادلين: لابد أن يرجع أمر هذا الدين كما كان وترجع هذه الدولة كما كانت ، وقال الآخر : لا يرجع أمرهم أبداً كما كان ولا ما كانوا عليه من البدعة ، ثم اتفقا على أنهما يذهبان في غد ويصليان صلاة الصبح خلف الشيخ عبد الجبار وينظران ماذا يقرأ بعد الفاتح في الركعة الأولى ، ويجعلان ذلك فألاً يحكمان به فيما اختلفا فيه فذهبا وصليا خلفه فقرأ بعد الفاتحة في الركعة الأولى ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ فتعجبا من ذلك ورضيا بذلك الفأل حكماً.

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بفضل الله تعالى وببركة رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

تم كتاب الدّرر السنية

في الرد على

الوهابية

الفهرس

الموضع — الصفحة

من إصداراتنا



هاتف : ٢٧٤١٩٩٨ فاكس : ٢٢٣٧٦٠٦
جوال : ٤٩٤٠٨٥ ، ٠٩٤ ص.ب : ١٢٦٧٣
e-mail : krmo@maktoob.com

المكتبة التخصصية للرد على الوهابية